مغامرات أوليفر تويست

تأليف:تشارلز ديكنز

إعداد وتقديم / أ/اسامة عبد الرحمن

مقدمة

تحكي قصة أوليڤر تويست عن طفل صغير ماتت أمه بعد ولادته مباشرة أما والده فقد مات بعد ولادته بأشهر قليلة نشأ الطفل يتيما وترك لرحمة قلوب قاسية من العمال الذين يديرون الإصلاحية بعدها قررت السلطات التي تدير الملجأ نقله إلى ملجأ فرعي حيث ثلاثون يتيماً آخرون يعيشون تحت ظروف مزرية ومعاملة سيئة .

بر الطفل ضئيل الجسم وأصفر الوجه والطعام الذي يقدمونه كان لا يشبع وكان الأطفال غالبا ما يتصارعون من أجل الطعام ويوما، جاء إلى الملجأ السيد بامبل لأخذ أوليفر وذهب أوليفر مع السيد بمبل وعندما بلغ التاسعة من العمر كان شاحب الوجه، ضعيفا وقصير القامة، وعمل عند صانع توابيت موتى وحانوتى.

بعدما سب نوح أحد عمال الحانوتى أم أوليفر، هرب هذا الأخير إلى لندن مشيا على قدميه، فقابل في رحلته طفلا منحرفا يعمل لحساب عصابة وهو رئيس عصابة تستغل الأطفال في النشل مقابل إطعامهم وإيوائهم لكنه يتورط دون أن يفعل شيء ويهرب الأطفال بالغنيمة فيذهب به العسكر للقسم ومن ثم يبدأ القاضي بنطق الحكم ولكن صاحب محل الكتب الذي كان يشتري منه السيد بروان يرى لحظة السرقة ويؤكد ان أوليفر لم يكن هو الذي سرق ويغشي علي الصبي فيأخذه بروان معه ويعتني به ومع تطور الأحداث يظهر شخص غامض اسمه مونك يقابل فاجن ويطلب منه تدمير سمعة اوليفر فيعلم السيد براون ويصفي بروان لو حساباته مع مونك حيث اكتشف ان اوليفر اخاه من أبيه فقط وأراد تدمير سمعته حتى لا يحصل على الميراث حسب وصية الوالد التي لا تعطي الحق في الميراث للأبناء الفاسدين وتنتهي الرواية علي ذلك.

اسامة عبد الرحمن

كانت مدن إنجلترا وقراها على عهد قصتنا هذه تزهى بما فيها من ملاجئ البر والاحسان ففى ملجأ من تلك الملاجئ ولد ذات يوم وليد جديد مجهول الأب وشاء القدر أن تلفظ أمه أنفاسها بعد مولده بدقائق معدودة فلم يعرف إلى أى طبقة من طبقات المجتمع ينسب هذا الولود الجديد اهو ابن عظيم من العظماء أم ابن متسول من المتسولين فتبنته إدارة الملجأ وأطلقت عليه اسم أوليفر تويست وعهد فى تنشئته وتربيته إلى دار من دور رعاية الطفل ريثما يكبر ويترعرع فتستعيده وتستخدمه فى بعض الأعمالفقد كان من أنظمة تلك الملاجئ الخيرية أن توفر المأوى والغذاء لمن يلتجئ اليها أو تتبناه على ان ينهض بما تفرضه عليه من عمل وخدمه ولن يشذ بطل قصتنا عن ذلك النظام فسوف يعود بعد سنوات إلى الملجأ الذى ولد فيه ليقوم بالعمل الذى يطلب منه لقاء ما يقتات به من كسيرات الخبز أو فتات الطعام .

هبط أوليفر تويست إلى هذه الدنيا وهو يبكى ويصيح ولو عرف فى ساعة مولده أنه جاء إلى هذه العالم يتيماً فقيراً وأنه سيعيش فيه فريسة للعذاب والجوع وعرضه للنهر والضرب يزدريه الناس ويضنون عليه بالعطف والحنان – لو عرف فى ساعة مولده ذلك كله لزاد فى بكائه وصياحه .

ولما بلغ التاسعة من عمره كان سوء التغذية فى الدارالتى نشأ فيها قد جعل منه طفلا هزيلا شاحب اللون ولكن الطبيعة أو لعلها قوانين الوراثة كانت قد عوضته عن ذلك وحبته بفكر نير وذهن ثاقب وسريرة مستقيمة.

واتفق فى اليوم الذى تخطى فيه عتبة السنة التاسعة من عمره أن كان هو ورفيقان له محبوسين فى القبو الذى يخزن فيه الفحم والحطب فى تلك الدار نزلوا اليه بعد ان اشبعتهم مديرة الدار ضربا وركلاوكل جريرة هؤلاء الصبية الصغار أنهم جرؤوا على الشكوى من الجوع الذى يقرص بطونهم

وبينما قبع هؤلائ الثلاثة فى حبسهم المظلم يزور الدار زيارة مفاجئة وكان مجلس غدارة الملجأ قد ناط به تفقد الصببيه ورعاية شئونهم ولشد ما ارتبكت مديرة الدار من تلك الزيارة المفاجئة فأمرت على الفور غحدى مساعداتها باطلاق سراح الأطفال الثلاثة وتنظيف ملابسهم ثم خفت الى استقبال الزائر متصنعه السرور بلقائه فابتدرته قائلة

- أهلاً وسهلاً بالزائر الكريم ثم سالته بظرف :
- هل لك سيدى فى كأس من النبيذ ؟ ان العرق يتصبب من جبينك فلابد انك قادم من مكان بعيد ولعلك لا تدهش يا سيدى من وجود قليل من النبيذ فى دارنا فانى أضع منه قدر ملعقة أو ملعقتين فى الحساء الذى أقدمه لأعزائى الصبية الثلاثة عندما يكونون بالبرد أو بشئ من اعتلال المزاج .
- فشكرها الزائر واعتذر عن الشراب وقال
- ان الطفل الذى اطلقنا عليه اسم اوليفر تويست قد بلغ اليوم التاسعة من عمره ولقد ذهبت مساعى المجلسأدراج الريا ح فى محاولة معرفة اسم والديه وبيئتهما مع اننا رفعنا قدر المكافأة عن ذلك إلى خمسة عشر جنيها فقالت المديرة :
- ولا أكتمك يا سيدى أنى أحب هذا الصبى حبا جما كما لو كان

انهما من لحمى ودمى فأثنى الموظف على عاطفتها الرقيقة وحنانها ثم قال : تعلمين يا سيدتى ان أوليفر قد بلغ من العمر حداً لا يسمح له فيه بالبقاء فى الدار ولقد قرر مجلس إدارة الملجأ ان يستعيد الطفل ويضمه الى خدم الملجأ وها أنا ذا قد جئت أنفذ قرار المجلس فعلى بالطفل فى الحال فنهضت المديرة وخرجت من الحجرة وهى تقول :

سمعا وطاعة يا سيدى سآتيك به فى الحال

وغابت المديرة لحظات ثم عادت ممسكة بيد اوليفر بعد أن اصلحت قليلا من هندامه فلما توسطت وإياه الحجرة قالت له يا اوليفر هذا السيد بمبل

فحياه الطفل تحيه طيبه فقال له هذا اريد أن تصحبنى يا أوليفر فقال الطفل

أتسمح لى بذلك سيدتى المديرة ؟ فقال بمبل

لا أظنها تمانع فى رحيلك معى يا أوليفر ثم انها تستطيع ان تزورك حينا بعد آخر

وتضاربت عوامل الانفعال فى قلب الطفل الصغير فقد سره ان ينقذه الرجل من هذا الجحيم الذى يعيش فيه ولكنه وهو الطفل الصغير كان اعجز من ان يتصنع الكآبة فتذكر الضربات التى تلقاها من المديرة قبل ان تحبسه فى قبو الفحم والحطب فانهالت عبراته وأخذ يبكى وينتحب فطيبت المديرة خاطرة ولوسعته قبلاً ثم جاءته ببعض الحلوى حتى لا يصل إلى الملجأ وهو يتضور جوعاًوسار الموظف بعد قليل بالطفل وخرجا معا من تلك الدار التى قضى فيها أوليفر تسع سنوات مملوءة بالبؤس والحرمان ولم يأسف إلا على فراق صديقيه الطفلين اللذين ربطته بهما أواصر الشقاء .

وصل بمبل بالطفل إلى الملجأ وسلمه إلى بعض العاملات فيه وعاد بعد ربع ساعة يقول للطفل ان مجلس ادارة الملجأ منعقد وقد بعثنى ادعوك إليه فحار الطفل فى أمره ولم يستطع عقله الصغير ان يفهم معنى مجلس الادارة وما ينطوى عليه فتوقع ان يناله منه الأذى والضر فملأ الخوف صدره واستسلم للبكاء

على ان الموظف لم يترك له فرصة طويله للبكاء والعويل فنقره بعصاه على ام رأسه نقرات خفيفة اعادت اليه رشده وأمره بأن يتبعه فوصلا بعد قليل إلى حجرة واسعة رأى الطفل فيها عشرة أشخاص ضخام قد جلسوا حول منضده طويلة يتوسطهم رجل أضخم منهم جميعاً مستدير الوجه منتفخ الأوداج قد جلس على مقعد اعلى من بقية المقاعد التى جلس عليها هؤلاء الرجال

ما اسمك ايها الصغير ؟

فسكت الطفل ولم يجب فان منظر هؤلاء الرجال العشرة قد أثار فى نفسه الرعب وكمم فمه فكال له الموظف الواقف خلفه بضع ضربات بعصاه على ظهره فازداد الطفل خوفا وأجهش بالبكاء فقال رجل من الرجال العشرة وكان يلبس صديريا أبيض:

انه طفل بليد ابله فقاطعه رئيس الجماعه وقال انت تعلم ايها الصغير أن لااب لك ولا أم وأن هذا الملجأ قد عنى بك وبتربيتك ؟ فقال أوليفر : وهو يبكى بكاءا مرا

نعم يا سيدى فقال الرجل ذو الصديرى الأبيض : ولماذا تبكى اذن غريب يناس شأن هذا الطفل ما الذى يبكيه ؟ فقال الرئيس : اعدناك إلى الملجأ أيها الصغير اتستكمل تربيتك وعلومك ولتتعلم مهنة تنفعك فى الحياة فقال الرجل ذو الصديرى الأبيض :

ففى الساعة السادسة من صباح الغد تبدأ بتقشير البطاطس .

وختم المجلس اقواله مع الطفل عى هذا النحو ثم خرج الموظف بالطفل واستودعه رجال الملجأ فقادوه إلى غرفة النوم الفسيحة فارتمى على سرير غليظ فيها واستغرق فى نوم عميق

وصحا فى صباح اليوم التالى فانضم إى رفاقه فى الملجأ وبدأ يعمل معهم فى جد ونشاط وقضى على هذه الوتيرة نحواً من ثلاثة أشهر ناهضاً بما يطيق وما لا يطيق من الأعمال متغذيا باقل من القليل من الخبز والحساء فما كانت حاله فى الملجأ بأحسن منها فى الدار التى تركها.

وفى مساء يوم من الأيام بلغ الجوع مبلغه من أوليفر ورفقائه الصغار فاتفقوا فيما بينهم على ان يختاروا واحدا منهم ليطلب من الطباخ مزيداً من الحساء حينما يجمعهم فى غرفة الطعام ويوزع عليهم نصيبهم من ذلك القوت الذى لا يروى ولا يشبع فوقعت القرعة على أوليفر فنهض يقدم رجلاً ويؤخر ألأخرى وحمب قصعته بيده وذهب الى الطباخ وقال له وهو يرتجف من الخوف : سيدى هل لك ان تمن على بقدر آخر من الحساء فكاد الطباخ يغمى عليه من الدهشة والاستغراب وعد هذا الطلب من الطفل الصغير جرأة ما بعدها جرأة حتى إذا ما ثاب اليه رشده انطلق على بدانته وغلظة جسمه يخبر موظف الملجأ بذلك الحدث العظيم فخف بمبل

وهو لا يقل عنه دهشة واستغرابا إلى مجلس الادارة وكان منعقداً يصرف شئون الملجأ فدخل على أعضائه بلا استئذان وصاح يخاطب الرئيس : سيدى ان الطفل أوليفر قد طلب المزيد من الطعام فارتسمت على وجوه أعضاء المجلس عند سماعهم هذا النبأ امارات الدهشة والاحتقار فقال الرئيس يخاطب الموظف بمبل : أطلب مزيداً من الطعام بعد أن أكل النصيب المقرر وفقاً للوائح المجلس ؟ فقال بمبل : نعم يا سيدى فقال الرجل ذو الصديرى الأبيض: ستكون خاتمة هذا الطفل حبل المشنقة

وتداول المجلس فى الأمر فقرر أولاً حبس الطفل أوليفر فى قبو الملجأ وقرر ثانيا إصدار إعلان يعلق على باب الملجأ ويذكرفيه ان الملجأ يمنح خمسة جنيهات لمن يعفى الملجأ من الطفل أوليفر ويتكفل بمأواه وغذائه ويكون من حقه ان يلحقه لديه بأى عمل من الأعمال ؟

ونفذ قرار المجلس فزج بالطفل أوليفر فى القبو المظلم وعلق على باب الملجأ الإعلان الذى مجلس الادارة وانقضت أيام تسعة فلم يتقدم أحد لإعفاء الملجأ من ذلك الصبى النهم الأكول

وفى اليوم العاشر جاء إلى الملجأ رجل طويل القامة نحيف البنية قويها مفتول العضلات عابس الوجه وكانت صناعة الرجل دفن الموتى وصنع التوابيت فاستقبله موظف الملجأ وتبادل وإياه التحية فقبل الرجل ان يتكفل به ولكن اشترط ان يعيده الى الملجأ اذا بدا له لن العمل الذى يقوم به لديه لا يتكافأ وما سينفقه عليه من كساء وغذاء

وتمت الصفقة بين الرجلين ونهص صانع التوابيت مستأذناً فى الانصراف فودعه الموظف حتى الباب الخارجى للملجأ ووعده بان يعرض طلبه على مجلس الادارة فاذا وافق على ما لشترط ولا يخاله الا موافقا فسوف يأتيه هو نفسه بالغلام فى مساء ذلك اليوم

وعلم أوليفر تويست بمصيره فلم ينبس ببنت شفه فحمل صرة ملابسه وكانت أخف من الظل وخرج من الملجأ فى صحية الموظف إلى مكان جديد من أمكنة العذاب

وقبيل أن يبلغا حانوت الرجل شاء الموظف أن يلقى نظرة أخيرة على الغلام ويتفقد ملابسه وهندامه فقال له :

اوليفر فقال الغلام بصوت ضعيف مرتجف نعم ياسيدى فقال بمبل لا تنزل قبعتك حتى عينيك وارفع رأسك قليلاً

فاطاع الغلام قائده ومرر كفه على عينيه ليمسح عبرة سخينة ولكن عقد الدمع انفرط من مآقيه فأخذ ينشج ويبكى وهو يحاول عبثاً أن يتجلد ويصبر على بلواه فحدجه بمبل بنظرة قاسية وقال له :ما رأيت ولدا أشد منك انكارا للجميل إنك فقاطعه الغلام قائلاً وهو يمسح عبراته :لا لا يا سيدى سأكون ولداً طيعاً رحماك ياسيدى إنى طفل صغير قد نبذنى جميع الناس فليس من يرحمنى أو يعطف على فناشدتك الله ياسيدى لا تغضب على

فأثر كلام الغلام فى قلب بمبل فتلطف فى الكلام معه وربت على كتفيه ثم أمسك بيده وخطا به الخطوات القليلة الباقية دون حانوت صانع التوابيت وكان قد اغلق حانوته نصف اغلاق وجلس يراجع اوراقه فدخل عليه بمبل ومعه أوليفر فحياه وقال :

ها أنا ذا قد جئتك بالغلام

فرفع الرجل الشمعدان الذى أمامه وعلا به فوق رأسه ليلقى نظرة صحيحة على الغلام القادم إليه ثم نادى زوجته من داخل الحانوت فأقبلت مسرعة فلما رأت الغلام قالت :

لله ما أضعفه وأشد هزاله وفتحت المرأة بعد هذا الكلام بابا فى آخر الحانوت ودفعت الطفل إلى سلم ضيق ينزل منه إلى قبو صغير رطب كانت المرأة قد جعلته مطبخا تطهو فيه الطعام ثم نادت بأعلى صوتها خادمة لها تدعى شارلوت وقالت لها :

شرلوت قدمى لهذا الطفل فضلات طعام الظهر ثم ارجعيه غلينا فتلقفته الخادمة وقدمت له نصيباً وافراً من الطعام فنسى الغلام كل همومه وانكب على اللحم المطبوخ يزدرده بشهوة لا مزيد عليها فقلما كان قد ظفر حتى ذلك اليوم بوليمة كهذه الوليمة وخرج بعد ذلك من القبو وكان الموظف قد انصرف فقالت له ربة الحانوت:أن فراشك فى صدر الحانوت فلا إخالك تخاف من النوم بين التوابيت وسواء خفت أم لم تخف فليس لدينا موضع آخر ترقد فيه .

وانصرف الرجل وزوجته والخادمة تاركين أوليفر المسكين فى ذلك المكان الرهيب الذى يأنف ويفزع أن ينام فيه الرجال الشجعان بله الأطفال الصغار

وبقى الغلام قليلاً فريسة الهواجس والمخاوف تتراءى له الأشباح على ضوء الشمعة المتراقص ويخيل إليه أن التوابيت الموجودة فى الحانوت قد ارتمت عنها الأغطية وخرجت منها جثث الموتى بوجهها الشاحب وأيديها المعروقة فلم يتمالك نفسه عن الصياح ورد الصدى على صياحه فزاده فزعاً وكاد يفقده صوابه وتحامل الغلام على نفسه وأهاب بشجاعته فمضى الى الشمعة وأطفأها وغطى عينيه براحتيه هرباً من رؤية الأشباح ومشى الى فراشه يتعثر مرة وينهض مرة أخرى.

استيقظ اوليفر فى الصباح الباكر على صوت ضربات متلاحقة تنقض على باب الحانوت فنهض من فراشه ومشى تواً إلى الباب فسمع صوتاً يصيح قائلاً : أفتح الباب ايها الحقير فقال أوليفر تمهل قليلاً يا سيدى فالباب مقفل فقال الصائح اعرف ذلك ايها البله ولكن حسبك ان تشد المزلاج فينفتح الباب باشارة ذلك القارع الصائح فانفتح الباب فاذا به يرى فتى يكبره بعدة سنوات ويقول له : أأنت الغلام الجديد الذى التحق بالعمل فى هذا الحانوت؟ ١٨

نعم ياسيدى فقال الفتى كم عمرك؟ فقال أوايفر:

عشر سنوات ياسيدىفقال الفتى ستنال قصاصك أيها الدعى على تاخرك فى فتح الباب

فاعتذر أوليفر للفتى وقال له فى دعه وتواضع : لعلك محتاج ياسيدى الى تابوت من التوابيت فاستشاط الفتى غيظاً وعد كلام أوليفر مزاحاً لايليق أن يوجهه إليه فقال له وهو حانق: انك ولا شك لا تعرف من أنا أيها اليتيم الوقح أنا نوح العامل فى هذا الحانوت وأنت مرؤسى ولاكله برجله ودخل إلى الحانوت وأقبلت فى تلك اللحظة الخادمة شرلوت ورأت الرفسة التى كالها نوح للغلام البائس فتهرته فقال لها :

ان هذا الحقير يتيم لقيط فهل تريدين ان نعامله معاملة أبناء الأسر فقالت شرلوت

انك فتى غليظ الكبد يا نوح هيا هيا تعاليا لأعد لكما طعام الفطور

وقضى اوليفر نحوال من شهر فى حانوت صانع التوابيت يقوم بما يفرض عليه من عمل ويتحمل فى صبر عجيب ومضض شديد غلظ الفتى نوح وشراسة خلقه وقارص ألفاظه

ونزل ذات يوم أوليفر ونوح معاً إلى المطبخ فى ساعة الغداء وكان صاحب الحانوت وزوجته والخادمة غتئبين عن الحانوت فى تلك الساعة فاغتنم نوح الفرصة وأخذ يتغالظ ويداعب أوليفر فى قسوة مثيرة فتارة يشد له شعره وطوراً يقرصه من أذنيه وحيناً ثالثاً يخطف نصيبه من الخبز واللحم وغلامنا صامت لا يتكلم ولا يتحرك فلما رأى نوح ان مداعبته الثقيله لم تستفززميله المسكين عمد إلى طريقة أخرى لا يعمد إليها إلا الأنذال عندما يريدون لن يطعنوا محدثهم طعنة تجرح عزة نفسه فقال له :

بأى داء ماتت أمك فقال أوليفر وكأنه كان يناجى نفسه بقد قيل لى انها ماتت يأساً وغماً وإنى لأدرك كيف يموت الناس من اليأس والغم ولمح نوح عبرة كادت تنهمر على خد أوليفرفغلب عليه الفرح وشرع يدند ويصفر ثم قال وما الذى يبكيك أيها الأحمق؟

لاتظن انك انت الذى يبكينى فقال نوح ساخراً : من الذى يبكيك اذن أذكراك لأمك ؟

لا لست انت الذى تبكينى حسبك يا نوح وعد عن ذكر أمى فقال نوح ممعناً فى صفاقته من حسن حظها أنها ماتت فلربما كان مصيرها غياهب السجن أوحبل المشنقة

فاحتقن وجه أوليفر عند سماعه هذا الكلام ونهض عن كرسيه وانقض على نوح وأمسكه من عنقه وأخذ يهزه هزاً عنيفاً ثم صفعة صفعة شديدة على وجهه طرحته ممدداً على الأرض .

أما كيف تحول أوليفر الدمث الخلق الرقيق الشمائل الوديع الفؤاد إلى أسد هصور يريد ان يفتك بغريمه فلا يصعب إدراكه فان تقديسه لذكرى أمه وصون تلك الذكرى عن عن مطعن كل عابث غامز قد نفخ فى قلبه الصغير روحاً من القوة والشجاعة غلبته على خصمه وتطلع نوح إلى أوليفر فلاح له الشر فى عينيه فاخذ يزعق ويصيح :

الغياث المعونة انقذونى من المجرم أنقذونى من القاتل شرلوت سيدى سيدتى لقد أصيب أوليفر بالجنون إنه يهم بقتلى شرلوت.

وكانت ربة الحانوت والخادمة شرلوت قد عادتا من بعض شأنهما فسمعتا الصياح فهرعتا إلى المطبخ وهالهما أن تريا نوحا منطرحاً إلى الأرض وأوليفر واقفاً له بالمرصاد فهجمتا على أوليفر وطوقتاه بأذرعهما اولاً ثم كالتا له ضربات أليمة فتشجع نوح ونهض وهو يكيل أيضاً الرفس والركل للعلام الصغير .وأمرت ربة الحانوت أوليفر ان يبقى فى المطبخ وخرجت هى والخادمة ونوح إلى الحانوت وأقفلت باب المطبخ فما كادت تستريح قليلاً حتى قالت : والآن ما العمل يا شرلوت فليس فى الحانوت رجل يحمينا من بطش هذا الغلام وزوجى لن يعود قريباً اندعو رجال الشرطة ؟ فقال شرلوت : لا أميل إلى دعوة الشرطة وإنما أوثر أن ندعو موظف الملجأ الذى جاءنا بهذا الغلام فهو كفيل بتأديبه ثم ماذا لو انتظرنا سيدى زوجك ليرى رأيه فى هذا الغلام فقال ربة الحانوت : نعم المشورة فنحن الان فى مأمن منه مادام محبوساً فى المطبخ ولسوف اقترح على زوجى ان يعيده إلى الملجأ الذى جاء منه فمحال ان نترك بيننا ولداً شريراً مثله .

وهبط المساء ولم يعد صاحب الحانوت فاغلقت زوجته الدكان وانصرفت هى ونوح والخادمة وكان أوليفر قد لستمع إلى حديثهم وعرف انه لن يطلع عليه الصباح حتى يعود إلى الملجأ ويرجع إلى شظف العيش والجوع فاسودت الدنيا فى عينيه بعد ان كانت قد بدأت تبتسم له وتوفر له رزقه من خلال التوابيت ودفن الموتى ٢٢ وغلب عليه الخوف فاستسلم للبكاء وعلى حين فجأة دار فى خلده خاطر ارتاح له فمشى إلى باب المطبخ وطفق يعالجه حتى انفتح ومضى منه إلى حيث يضع ملابسه فلفها فى صرته المعهودة ثم حمل الصرة وتلمس طريقه الى باب الحانوت فشد المزلاج وفتح الباب وخرج غلى فضاء الله الواسع وقد عزم على مغادرة المدينة إلى حيث توصله قدماه فراراًمن ضرب أهل الحانوت وقسوة رجال الملجأ.

كانت الليلة مظلمة باردة ونجوم السماء مختفية غائرة فمشى أوليفر نحو ساعتين مبتعداً ما أمكنه الابتعاد عن الحى الذى عاش فيه مدة شهرين على وجه التقريب ومر فى سراه فى إحدى الحدائق العامة فدخلها واستلقى إلى مقعد من مقاعدها الخشبية واتخذ من صرته وسادة وقرر فيما بينه وبين نفسهأن يقضى ليلته فى ذلك المقعد ويستأنف المسير فى الصباح.

ولم يكد الفجر يلوح بوجهه الوردى حتى نهض صلحبنا الصغير من غفوته فحمل صرته وتابع سيره مخترقاً الأزقة والشراولع فبلغ بعد ساعات الطريق العامفمشى فيه ساعات أخرى ثم أدركه التعب والجوع فجلس فوق حجر يتبلغ بكسرة من الخبز كان قد حملها معه ولاحت له فوق الحجر الجالس عليه لافته تشير إلى أنه على بعد أربعين ميلاً من لندن فعزم ان يحعلها خاتمة مطافة

وبعد ان استراح قليلاًوأسكت عصافير بطنه بلقمة الخبز نهض يجد فى السير بلا ملل ولا كلل حتى أدركه المساء فعرج على بعض المزارع واستلقى عند كومة من الحشائش ونام نوما عميقاً واستيقظ فى الصباح وتابع سيره الى الوجهه التى تخيرها فوص لعد قليل إلى مدينة صغيرة فدخلها واجتاز شوارعها ودروبها وانتهى به المطاف إلى شارع كبير فيها فاخذ يجول فيه ويتفرج على حوانيته ودكاكينه فلمح على الرصيف الآخر من الشارع غلاماً فى مثل عمره يطيل النظر إليه ويتبعه عن بعد ثم رآه قد اجتاز عرض الشارع وجاء إليه وحياه وقال: ماذا بك ايها الرفيق ؟ يلوح لى انك غريب عن هذه المدينة فحملق فيه أوليفر فرآه غلاماً شنيع المنظر قذر الثياب قد أمال قبعته إلى اذنه اليمنى حتى لتكاد تقع ووضع يديه فى جيبى سرواله وهو يشمخ بأنفه شأن كبار الرجال فرد أوليفر على تحيته والدمع يكاد يطفر من عينيه وقال انى متعب جائع وقد قمت برحلة طويلة فقال الغلام لا بأس عليك تعال معى وقاده الغلام إلى بعض الأزقة المتفرعة على الشارع الكبير وأدخله معه مطعماً حقير المظهر وطلب له رعيفا كبيرا من الخبز وقطعه إضافية من اللحم المقدد فانكب أوليفر يلتهم اللحم والخبز التهاما فلما فرغ من تلك المأدبة الفاخرة قال له الغلام الغريب: أذاهب أنت إلى لندن ؟ فقال أوليفر : نعم فقال الغريب

ألديك فها مسكن يؤويك ؟ فقال أوليفر: كلا فقال الغريب : أتحمل معك شيئاً من النقود ؟ فقال اوليفر كلا فقال الغريب:

اعتمد على واطمن بالاً فأنا ذاهب إلى لندن وأعرف فيها شيخاً يؤيك بلا مقابل إذا قدمك إليه أحد معارفه وسأقوم بهذه المهمكة ولعله بعد أيام قلائل يجد لك عملاً ترتزق منه فتحسن حالك .

ومشى الغلامان فى طريقهما إلى لندن وكلما جد أوليفر فى سيره استمهله رفيقه وأنهى إليه أنه لا يبغى الوصول إلى لندن قبل منتصف الليل فكان له ما أراد وبلغ الغلامان العاصمة فى الوقت الذى حدده ذلك الغلام الغريب فلحظ أوليفر أن رفيقة يقوده فى أزقه لم ير أقذر منها ولا أحقر من بيوتها وأن الزقاق الضيق الذى وصلا إليه يبعث فى النفس الكراهيه والخوف فقد شاهد فيه على أبواب المنازل رجالا ونساءاً يتقاذفون بالشتائم وهم سكارى فهم ان يغافل رفيقه ويهرب من تلك البؤرة ولكن سبق السيف العذل ففى تلك اللحظة التى كانت تراوده فكرة الهرب دفع رفيقه جاك بيده اليمنى باب أحد المنازل وأمسك يد أوليفر باليسرى وتخطيا معاً عتبة الباب إلى رواق مظلم وطفق جاك يصفر صفيرا خاصا ولاح على اثر ذلك شخص يحمل فى يده مصباحاً فأنار الرواق المفضى الى سلم المنزا وقال : من هذا الذى فى صحبتك يا جاك فقال جاك عضو جديد يا شرلو فقال شرلو وكان غلاماً فى مثل عمر جاك من أين قدم ؟ فقال جاك : من بلاد السذج البلهاء هل الشيخ فاجن هنا أجل انه يرتب المناديل هيا اقبلا

وعاد شرلو بمصباحه إلى حيث كان وصعد جاك السلم وهو يقود وراءه أوليفر وانتهيا منه إلى غرفة قذرة يضيئها قنديل ضئيل وقد جلس فيها إلى مائدة الطعام يهودى عجوز متجعد الخدين بشع القسمات كث اللحية والشعر ٢٦

خاف أوليفر واضطرب ولام نفسه على انه انساق غير عامد إلى تلك البؤرة التى لا تبعث على الارتياح واجال طرفه فى انحاء الغرفة فرأى فى صدرها عدة أفرشة مدت على الأرض فراشا جنب فراش ورأى فى أحد الزوايا مجموعه من المناديل تراكم بعضها فوق بعض فذهل وندم وانتشله من ذهوله وندمه صوت جاك يقول : أقدم لكما صديقى أوليفر تويست

فضحك العجوز اليهودى ضحك القردة وقال

يسرنا ان نراك بيننا ياسيد أوليفر تعال وقاسمنا الطعام فلابد انك جائع أفسحا للضيف فى المكان وأهاب الجوع بالغلام أوليفر فجلس إلى المائدة وهو لا يعى ما يفعل وأخذ يبتلع اللثمة تلو الأخرى ثم قدم له اليهودى كأساً من الخمر وطلب اليه ان يشربها دفعه واحدة ففعل وارتمى بعد قليل على فراش من الأفرشه وراح فى سبات عميق صحا أوليفر فى صباح اليوم التالى من رقاده وكانت الضحى قد ضربت أطنابها فأدار نظراته فى أنحاء الغرفة وعيناه شبه مغمضتين فلم يجد الا اليهودى العجوز وقد جلس إلى المائدة ووضع عليها فنجانا كبيرا من القهوة يرشف منه ذلك الشراب السود جرعة بعد جرعة

ورآه بعد قليل وقد عمد الى الصفير والتغنى بكلمات متقاطعة ثم سمعه يناديه باسمه فلم يجب أوليفر النداء فالنوم كان لايزال عالقاً بأهدابه ولما أيقن العجوز أن أوليفر غير صاح نهض إلى خزانة محفورة فى قلب الحائط ففتحها وأخرج من بعض أدراجها السرية علبة كبيرة ركزها إلى المائدة وطفق يقلب محتواها بين أصابعه وعيناه تقدحان بشرر الجشع والحذر.

وحدق أوليفر من ثنايا جفونه فى ذلك الذى يقلبه اليهودى العجوز بين يديه فإذا هو ساعات من الذب مختلفة الأحجام والأشكال وخواتم ومشابك وأسورة من الذهب المرصع بالألماس إلى غير ذلك من الحلى والجواهر التى لم تقع عين أوليفر عليها قط قبل ذاك اليوم .

وتقلب أوليفر فى فراشه فاضطرب اليهودى اضطرابا شديداً وأعاد الجواهر إلى علبتها بسرعة البرق الخاطف ثم وضع العلبة فى درجها السرى من الخزانة وأمسك بسكين كبيرة ماضية الشفرة واستعد للدفاع عن كنزه متوقعاً ان ينفتح عليه باب الغرفة ويدخل منه اللص الطامع فى ثروته ولكنه أدرك فى الحال أن ليس فى الدار غريب مغتصب فاستدار إلى أوليفر فرآه قد استيقظ وإن لم ينهض من فراشه فقال له حانقاً مغضباً :ماذا تريد أيها الوقح ؟ لماذا كنت ترقبنى؟ ماذا رأيت؟ أجب على الفور وإلافقدت حياتك .

فقال أوليفرفى دعة ورقة بعد أن نهض من فراشة لم استطع النوم أكثر مما نمت يا سيدى وعذرا إذا أنا ازعجتك وأثقلت عليك

فأعاد اليهودى العجوز السكين إلى موضعها واستعاد لهجته العادية وتظلهر أنه إنما كان يعبث بالسكين ليس إلاواقترب من أوليفر وقال له :إنما أردت أن أخيفك يا عزيزى فإذا بك فتى شجاع يا أوليفر ولكن قل لى أرأيت شيئاً مما تحويه العلبة ؟ فقال أوليفر : نعم يا سيدى .

فاصفر وجه اليهودى العجوز وصمت قليلاً ثم قال :إنها ثروتى إنها الثروة التى ساعتمد عليها عندما أطعن فى السن وأبلغ من الكبر عتياً يقولون إنى شحيح ولكن مكره أخاك لا بطل.

وسمع عندئذ وقد أقدام على السلم وما هى إلا لحظات حتى دخل الغرفة الغلامان جاك وشرلو فدعاهما اليهودى العجوز لتناول طعام الافطار وقبل أن يجلس القادمان قال لهما العجوز : لعلكما ذهبتما إلى العملو عدتما منه بصيد ثمين فقال جاك : عدت بمحفظتين منتفختين بأوراق النقد وهاكهما.

إنك بطل عظيم يجاك وأنت يا شرلو بماذا عدت؟

فقال شرلو:

بمجموعة من المناديل الثمينة وأخرجها من جيوبه.

نعما أيها العامل النشيط وأدار العجوز نظره إلى المناديل ثم قال إنها كلها مطرزة بأسماء من كان يحملها يجب نزع تلك الأسماء بإبرة رفيعة وسنعلم أوليفر كيف يقوم بذلك العمل .

وجلسوا جميعا يتناولون طعام الإفطار ولما فرغوا منه شهد أوليفر اليهودى العجوز والغلامين يقومون معا بحركات غريبة مضحكة فقد رأى العجوز يضع علبة من علب الدخان فى أحد جيوب سرواله ويضع محفظة فى جيب آخر ثم رآه يضع فى جيب الصديرى ساعة مربوطة بسلسلة ولا تسل عن دهشة أوليفر عندما شاهد العجوز قد اعتمد على عصا وأخذ يتجول متسكعا فى جوانب الغرفة كما يتسكع الناس الذين يمشون فى الشوارع ولا عمل لهم إلا الفرجة والتنزه فتارة كان يقف أمام الموقد وتارة أخرى امام الباب يجيل نظره فيه كأنه واجهة حانوت من الحوانيت وطوراً ثالثاً كان يتفقد جيوبه كمن يخشى اللصوص والنشالين

وكانت حركاته تلك من الغرابة بحيث أضحكت أوليفر وكاد يستلقى على قفاه من شدة الضحك وكان الغلامان يتبعانه عن كثب وكانا كلما التفت العجوز إلى الوراء تواريا عن نظره بخفة ورشاقة حتى تقدم أحد الغلامين منه وداس على رجله فى حين صدمه الآخر من الخلف وبأسرع من لمح البصر كان العجوز قد فقد كل مافى جيوبه من علبة الدخان والمحفظة والساعة حتى المنديل وعلبة النظارة وكرر هؤلاء الثلاثة هذه المسرحية مثنى وثلاث ورباع وأوليفر تتنازعه من ذلك المنظر عوامل الضحك والدهشة .

وبينما هم على هذه الحال وفدت عليهم فتاتان فى مقتبل العمرتدعى إحداهما يتسى والأخرى نانسى فأكلتا وشربتا ثم زودهما اليهودى العجوز ببعض المال فانصرفتا ومعهما الغلام جاك فالتفت العجوز إلى أوليفر وقال له : لقد ذهبوا يتنزهون ويمرحون فقال أوليفر: أفرغوا يا سيدى من عملهم فى هذا اليوم فقال العجوز : أجل ولكن إذا عرض لهم فى أثناء مرحهم عمل جديد فلن يتوانوا عن القيام به فلم يفهم الغلام المسكين شيئاً من هذه الأحاجى ثم سمع العجوز يقول له : تعال أعلمك كيف تنزع الأسماء من المناديل وخذ هذا الشلن جزاء مقدما على عملك فأذعن الغلام لأمر العجوز وانكب على عمله بهمة ونشاط ولم يخامره أى شك من الشكوك وبقى أوليفر عدة أيام لا يغادر المنزل حتى ضاق صدره واشتاق إلى الحرية والفضاء الواسع وكان اليهودى العجوز قد عهد إليه بنزع الأسماء من كمية كيرة من المناديل لم يدر أوليفر من أين تهبط عليهم وكان قد أشركه أيضاً فى اللعبة التى يلعبونها فى صباح كل يوم فتوسم فيه الخير وقدره قدره من الذكاء والمهارة .

وسمح العجوز ذات يوم للغلام أوليفر بالخروج فى صحبة جاك وشرلو فسر سرورا لا مزيد عليه وعلل النفس بأن يذهبا به إلى عمل يعمله وهو حر طليق ويكسب منه رزقه الشريف .

وخرج أوليفر من المنزل يحيط به جاك وشرلو فسارا به من شارع إلى شارع ومن زقاق إلى زقاق وهو لا يدرى إلى اين ينتهى به المطاف ولقد كاد أوليفر يترك رفيقيه على ما به من شوق إلى الحرية والتمتع برؤية الناس والدكاكين والمنازل ويعود إلى المنزل فراراً مما يقومان به من أعمال دنيئة لا ترضى بها النفس الشريفة فقد رآهما لا يمران ببائع ثمار أو دكان بدال إلا نشلا بعض الثمار وملآ بهما بها جيوبهما وبينما هو يفكر فى أمره وأمرهما إذ سمع جاك يرقص طرباً فى الشارع ويقول مخاطبا أوليفر :أترى ذلك الرجل الواقف تجاه تلك المكتبة على الرصيف المقابل من الشارع ؟ فقال أوليفر : نعم أراه فقال جاك : إننا سنداعبه مداعبة لطيفة وعقب شرلو : إنه صيد ثمين فلم يفهم أوليفر من هذا الحديث شيئاً وقبل ان يستوضح رفقيه معنى كلامهما رآهما اجتازا عرض الشارع وذهبا يقفان وراء ذلك الرجل الذى أشارا إليه وكان قد تناول كتاباً من الكتب المعروضه فى واجهة المكتبة المكشوفة وشرع يطالعه بشغف ومتعة فلحق أوليفر برفيقيه حتى كاد يقترب منهما ولكنه وقف جامداً فى مكانه لايريم منه ولا يتحرك ذلك انه وقعت عينه على ما فعلا فاشمأزت نفسه اشمئزازاً .

رأى جاك يمد يده إلى جيب الرجل ويسحب منه حافظة نقوده ويرمى بها إلى شرلو ثم يتوارى اللصان فى منعطف من المنعطفات ويطلقا سيقانهما للريح فانكشف فى تلك اللحظة لغلامنا المسكين سر تلك اللعبة وما حوت من ساعات وخواتم وجواهر بل انجلى لعينيه سر الحياة التى يحياها ذلك اليهودى العجوز وأعوانه من الصبية والفتيات فوقف مسمراً فى موضعه وهو أشد ما يكون ذهولاً وتقززاً واحتقاراً فأطلق هو أيضاً ساقيه للريح دون أن يعى ما يفعل وشاء القدر أن يتفقد الرجل محفظته فى تلك اللحظة فلا يجدها وأن يرى أوليفر يجرى بمنتهى قوته فوثق أنه السارق فجرى خلفه والكتاب فى يده وهو يصيح اللص ادركوا اللص اقبضوا على اللص فركض كل من سمع نداء الاستغاثة وما هى الا دقائق قليلة حتى أدرك الراكضون أوليفر وقبضول عليه.

واحق الرجل المجنى عليه بجماعة الراكضين وأخذته الشفقة بذلك الغلام البهى الطلعة البرئ النظرات المرتجف من الخوف فهم أن يطرح عليه بعض الأسئلة ولكن شرطى الحى كان أسبق منه إليه فأمسك بتلابيب أوليفر يريد أن يسوقه إلى مخفر الشرطة فتطلع إليه أوليفر خائفاً متوسلاً وقال : لست لأنا يل سيدى إنهما غلامان آخران صدقنى يا سيدى لا بد أن يكونا غير بعيدين من هنا فلم يحفل الشرطى بكلام أوليفر البرئ وساقه إلى المخفر ومشى معه نفر من أصحاب الفضول فلما وصلوا إلى المخفر تلقاهم رئيس الشرطة وقال متسائلاً : ماذا حدث ؟ فقال الشرطى وهو يشير إلى أوليفر : نشال صغير قبضت عليه يا سيدى الرئيس ٠فقد نشل محفظة نقود هذا السيد فقال الرجل يخاطب رئيس الشرطة : على أنى لا أقطع بأنه هو السارق يا سيدى الرئيس ولعله من المستحسن حفظ الموضوع حتى لا نظلم هذا الغلام اذا كان بريئاً وعوضى على الله عما فقدت من نقود فقال رئيس الشرطة :

لا يغرنك يا سيدى هذه البراءة والسذاجة التى يتظاهر بها هذا الغلام فالعدل يجب ان يجرى مجراه ثم أمر رئيس الشرطة بأن يساق ٣٦ الغلام إلى قاضى التحقيق وطلب من الرجل المجنى عليه أن يذهب هو أيضاً إلى قاضى التحقيقات ووجه إليهم الأسئلة اللازمة ومال إلى كاتب الجلسة وطلب إليه أن يعد نص الحكم على الغلام بحبسه ثلاثة أشهر مع الشغل فأعد كاتب الجلسة الحكم المطلوب وهم بالنطق به ولكن حال دون ذلك رجل مهرول إلى قاة الجلسة وهو يصيح بألعى صوته :

على رسلكم يا قوم فهذا الغلام ليس السارق فتطلع غليه قاضى التحقيقلت مدهوشاً من تدخل هذا الغريب فقطع عليه الرجل دهشته حين قال : أنا صاحب المكتبة التى كان السيد واقفاً إلى واجهتها يقلب في ما أمامه من كتب فرأيت ثلاثة غلمان ومنهم هذا الغلام يتسكعون على الرصيف المقابل لمكتبتى ثم رأيت اثنين منهم غير هذا الغلام يقتربان من السيد الذى كان مشغولاً بالقراءة وينشل واحد منهما محفظة نقوده ويرمى بها إلى زميله وبعد ذلك طار الغلامان وتواريا عن الأنظار ورأيت كذلك الدهشة التى ارتسمت هلى وجه هذا الغلام الذى قبضتم عليه فقال له القاضى : ولماذا تأخرت فى المجئ والإدلاء بأقوالك ؟

لم أجد أحداً أكل اليه حراسة المكتبة فجميع الناس كانوا قد جروا وراء السارق وحلما عثرت على أحد يقوم بالحراسة هرعت إليك يا سيدى القاضى.

وصمت القاضى برهة ثم نطق ببراءة الغلام فخرج الناس من قاعة الجلسة وما كاد أوليفر يغادر القاعة إلى صحن البناء حتى سقط مغشياً عليه فسارع إليه صاحب المحفظة المفقودة يقيله من سقطته فرآه فاقد الوعى فطلب قبيلاً من الماء فرشه به عبى وجهة فأفاق ولما تفرس الرجل فى وجه أوليفر ملياً قال فى نفسه رباه ان هذا الوجه غير غريب على فأين رأيته قبل اليوم ؟وبدأ الرجل يستعرض فى ذهنه وجوه من يعرف من الناس وله شئ من الشبه مع وجه الغلام فلم يتوصل إلى العثور فى لوح خيلبه على الشبيه ثم ضيق حلقة التشبيه وكاد يرى فى وجه الغلام شخص كان فيما مضى حبيباً إلى فؤاده ولكنه طرد هذه الفكرة من مخيلته وعاد يعتنى بالغلام فأنهضه وحمله إلى مركبة من مركبات الأجرة وسار به إلى منوله وهناك أمر مديرة المنزل بإعداد سرير للغلام فوضع فيه وراح فى غيبوبة من الحمى .

مكث أوليفر مدة أسبوع طريح الفراش لا يعى شيئاً حوله حتى إذا فارقته الحمى ودب اليه وعيه شيئاً فشيئاً تساءل ذات صباح قائلاً: أين أنا ومن ذا الذى جاء بى إلى هنا ؟ فسمع صوت سيدة طاعنة فى السن كانت جالسة قريبه منه تقول له : لا تتكلم يا ولدى ولا تتحرك كثيراً فالمرض قد يعاودك هذه وصية الطبيب الذى داواك إنك هنا فى منزل السيد براون وهو بك شفيق رحيم إنه الآن غائب عن المنزل وسوف يسره متى عاد ان يراك فى صحة جيدة .

فشكرها أوليفر كل الشكر وأطنب فى شكره وأسهب حين جاءته بقدح من الشراب المنعش فشربه مسروراً .

وفى مساء ذلك اليوم جاءته بقصه مملوءة من الحساء الساخن اللذيذ وإلى جانبها إناء مملوء كذلك بالحساء فنظر أوليفر إلى القصعة والإناء وقدر أن الحساء الذى فيهما يكفى ثلاثمائة فقير من أمثاله فشرب الحساء مريئاً وأكل هنيئاً مما كان مع الحساء من خضر ولحم الدجاج هذا والمديرة العجوز هانئة مسرورة باقبال أوليفر على الطعام بشهوة ورغبة ثم رأته يحدق طويلاً فى صورة زيتية معلقة على الحائط فقالت له

أتحب التصوير الزيتى يا عزيزى ؟ فقال أوليفر :لست ادرى يا سيدتى فقلما رأيت مثل هذه الألواح فى حياتى غير أن وجه الفتاة المرسومة فى هذا اللوح يبدو لى انه يشع بالجمال والحنان فهل تشبه احداً فى أسرة هذه الدار يا سيدتى ؟ فقالت المديرة العجوز : لا يا عزيزى فقال أوليفرؤ : إنم عينيها تفصحان عن الكآبة ويخيل الى انها تحدق إلى وتريد أن تكلمنى فقالت المديرة : لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته يا ولدى وفى هذه اللحظة دخل السيد براون واقترب من سرير أوليفر مستفسراً عن صحته فقال له أوليفر : أرجو ألا تكون مستاءاً منى يا سيدى فضحك السيد براون ولاحت منه التفاته إلى صورة الفتاة المعلقة على الحائط ثم وزع نظراته بينها وبين أوليفر فقال يخاطب مديرة المنزل : يا لله من هذا الشبه الغريب ثم انصرف مسعاً فقد حركت الصورة فى نفسه لواعج الشجون

عاد جاك وشرلو إلى منزل اليهودى العجوز فلما رآهما اثنين لا ثالث لهما احتدم غيظاً وصاح فيهما قائلا: أين أوليفر؟ فجزع الغلامان من مكنظر ذلك الوحش الجاحظ العينين والتزما الصمت فانقض اليهودى العجوز على جاك وامسك بتلابيبه وقال :ماذا جرى له؟ فقال جاك وقد استرد بعض وقاحته وشجاعته : لقد وقع فى الفخ ولكن هلا تركتنى أتنفس ؟ فدوى صوت العجوز هائجاً مزمجراً وهو يقول : أيها الشقى وقبل أن يتم كلمته فتح باب الغرفة وسمع صوت جهورى يقول : ماهذا الرعد القاصف فى هذه الغرفة؟

وكان المتكلم الداخل على هؤلاء الناس رجلاً فى عنفوان الرجولةيبلغ الخامسة والثلاثين من العمر ويدل مظهره على الحبث والإثم والإجرام فقال له اليهودى وهو يرتجف : خفض من صوتك يا سيكوانتظرنا يخبرك جاك بما حدث . فروى جاك على طريقته قصة اوليفر وقصة القبض عليه فقال اليهودى العجوز : وأخشى ما أخشاه أن يكشف أمرنا ويثير لنا المشاكل فقال سيكف فى ابتساه خبيثة: قد يكون ذلك ها أنت ذا قد بدأت تعلق بالشرك يا عزيزى فاجن فقال العجوز: إن وقوعى فى الشرك قد يجرك إليه يا عزيزى سيك فلو عرفت جرائمك لما كان مصيرك إلا السجن المؤبد أو حبل المشنقة.

فتطاير الشرر من عينى سيك وخيم الصمت على المجتمعين بضع دقائق فقطع سيك حبل ذلك الصمت وقال يهمنا ان نعرف أولاً ماذا حدث فى مخفر الشرطى وأين الغلام الآن .

فأمن العجوز اليهودى على هذا الرأى وأخذ يفكر فيمن يقوم بهذه المهمة فتبسم لما رأى باب الغرفة يفتح وتدخل منه الفتاتان اللتان كان أوليفر قد رآهمافى ذا١لك الوكر فبعد الوعد والوعيد رضيت الفتاة نانسى ان تقوم بتلك المهمة فرفدها العجوز ببعض المال على سبيل المكافأة فحيت الحضور وغابت ساعة أو ساعتين ورجعت بتفاصيل ما جرى للغلام أوليفر وكيف خرج من المخفر وهو مغمى عليه يحمله صاحب المحفظة وليس من يعلم اين يقطن هذا الرجل .

فطار صواب اليهودى العجوز وقام يوزع بعض المال على أفراد عصابته وطلب اليهم أن ينصرفوا جميعاً ويجدوا جميعا فى البحث عن الغلام أوليفر وأوصاهم أن يذهبوا به عندما يجدونه إلى المسكن الثانى اما هو فسيكون ةفى الحانة التى تعود أن يتردد عليها فإن اتفق أن كانوا فى حاجة اليه فليقصدوه فى تلك الحانة.

انقصى ذلك اليوم عيى غير طائل فما استطاع أحد من أفراد العصابة أن يعرف مقر الغلام أوليفر وانقضت بد ذلك أيام كثيرة فما أجدى البحث عن الغلام فتيلاً حتى جاءت الفتاة نانسى ذات مساء وأنهت إلى رفقائها بالنبأ الذى وقفت عليه فقد عرفت منزل الرجل الذى سرق جاك محفظته وعرفت اسمه فهو يدعى براون وعلمت كذلك ان أوايفر مقيم فى منزا الرجل وأنه قضى نحواً من أسبوع طريح الفراش يعانى سكرات الحمى وأنه الآن قد تماقل للشفاء فهو هانئ سعيد فى ضيافة السيد براون يجول فى أنحاء المنزل ويتنزه أحياناً فى الحديقة وتعتنى به مديرة المنزل عناية فائقة وتوفر له اشهى ألوان الطعام وتكسوه بأجود الملابس.

فرح اليهودى العجوز لدى سماعه هذه الأنباء فمن السهل الآلأن وقد عرفوا مقر الغلام أن يتصيدوا الفرص لا ختطافه والعودة به الى وكرهم القذر وبحثت العصابة فى أمر خطف الغلام وعهدت به الى الفتاة نانسى وطلبت من سيك ان يساعدها فى هذه المهمة فأذعن كل منهما للأمر واتفقا معا على تدبير خطة محكمة فى هذا السبيل وأوصاهما اليهودى العجوز بأن يذهبا بالغلام إلى المنزل الثانى فسوف يتخذه مباءه له هو والعصابة حتى يجد الغلام وسوف يوزع وقته بين ذلك المنزل والخانة التى يؤثرها على غيرها من الحانات .

ومنذ صباح اليوم التالى بدأت الفتاة نانسى والفتى سيك يدوران حول منزل السيد براون وحول الحديقة المحيطة به لعلهما يريان الغلام فى ساعة من الساعات وحيدا فى الحديقة فيصداه صيد السماك ويطيرا به الى منزل اليهودى العجوز .

وقضى المتربصان عدة أيام فى اللف والدوران حول مسكن السيد براون فما وقعت اعينهما على ضالتهما المنشودة فى أرجاء الحديقة إلا مصوباً بالسيد براون صاحب المنزل أو بالسيدة مدبرته فحال وجود أحدهما مع الغلام دون تنفيذ خطة الخطف تنفيذا سهلاً هيناً بغير جلبة ولا ضوضاء وكان سيك قد صحب معه فى هذه المهمة كلبه المحبوب وهو كلب ضخم الجثة قبيح المنظر متحفز للوثوب عند أول إشارة يشيؤ باه سيده فكان سيك يدارى ما يساوره من السأم والملل بمداعبة كلبه حيناً بعد حين.

وطالت أيام الترقب والانتظار حتى كاد اليأس يدب إلى قلب هذين الأثيمين وحتى كادا يرجعان من مهمتهما بخفى حنين فحدث عن دهشتهما وفرحهمت ولا حرج حينمت شاهدا الغلام فى أصيل أحد الأيام يخرج من المنزل متأبطاً عدداً من الكتب ويركض ما وسعه الركض متوجها إلى الشارع العمومى فتفاهما بالإشارة على أن يتركاه حتى يبتعد عن المنزل ثم ينقضا عليه فيلحقا ىبه من بعيد دون أن يفقدا أثره وهما يسائلان النفس ما شأن الغلام ؟ وعلام يركض هذا الركض ؟ وإلى أين يجرى بالك الكتب التى تأبطها؟ وجلية الأمر أن السيد براون كان يراجع بعض الكتب القديمة ف مكتبته بالمنزل فرأى أن يعيد قسماً منها إلى صاحب المكتبة التى كان واقفاً إزاء واجهتها يقلب أسفارها يوم سرقت منه محفظة نقوده وأن يستبدل بها غيرها فلما وافق أوليفر على رغبة المحسن إليه أراد أن يوفر عليه عناء الذهاب إلى المكتبة فطلب إليه أن يطلفه باداء تلك المهمة ووعده أن بأن يعود من قضاء مهمته أعجل ما يكون فقبل السيد براون عرض الغلام بعد تردد غير قصير ولعله أراد أن يستنشق أوليفر من نسيم المدينة بعد أن طال مكثه فى البيت مريضا.

وعلى هذا رأينا أوليفر الكريم الخلق الرقيق الشعور يغادر دار السيد براون راكضا إلى غايته وهو سعيد بأن يخدم الرجل الذى رعاه وآواه وعطف عليه ولكن القدر القاسى كان له بالمرصاد فلم يدر أية مصيبة تنتظره بعد خروجه من بيتكافله وراعيه

كان هم أوليفر أن يمضى إلى صاحب المكتبة ويستبدل بالكتب التى تأبطها الكتب التى يرغب السيد براون فى الحصول عليها ويعود سريعاً إلى الرجل الحنون الكريم بما طلب وابتغى غير أن تلهفه إلى الاسراع جعله يخلط بين بعض الأزقة والدروب فعندما اجتاز الشارع الكبيروأراد أن ينعطف منه إلى الطريق المؤدى إلى المكتبة التى يقصدها حدته العجلة إلى أزقه ضيقة اكتظت فيها المنازل الحقيرة فدهش وتعجب وأدرك أنه ضل الطريق فهم بأن يعود على أعقابه بحثاً عن الطريق الصحيح ولكن سرعان ما شعر بذراعين تطوقانه وصوت ناعم يقول له : أخى الحبيب آه يا أخى الحبي لقد عثرت عليك بعد طول الغياب كيف طاوعك قلبك أن تهجر أمك وتتركها تذرف الدمع السخين على فراقك تعال معى يا أخى الحبيب إن أمنا سيقيمها الفرح ويقعدها بلقائك .

سمع أوليفر هذا الحديق فمت فهم منه شيئاً فأية أم هجرها وتركها بعده حزينة القلب دامعة العين ؟ فاستدار بعد جهد ومشقة ليعرف من هذه الفتاة التى تطوقه بذراعيها زتحسب أنه أخوها فوقع بصره على الفتاة نانسى وكانت قد لحقت به إلى ذك الزقاق الضيق بعدما تعقبته منذ خروجه من منزل السيد براون فاضطرب اضطرابا شديداً وحاول ان يتملص منها وهو يقول : دعينى يا نانسى أذهب لشأنى فانى مكلف بقضاء مهمة عاجلة فقالت له وهى تصيح باعلى صوتها : لا لا أتركك إن أمنا ستموت حزنا على بعادك ولكن ما هذه الكتب ومن أين سرقتها ؟ وقبل ان يجيبها اصطكت ركبتاه فزعا ورعبا عند رؤيته الفتى سيك وكلبه المتوحش وهو يحاول أن ينقض عليه

ويمزق ثيابه فأخذ يصيح خائفا ويبكى بكاءا مرا وكان نفر من السفلة والرعاع قد تجمعوا حول هؤلاء الثلاثة فازدادت نانسى صياحا وهى تقول : ساعدونى يا قوم على هذا الولد الطائش إنه أخى ولكنه شرير آبق ثم أشارت إلى سيك قائلة وهذا اخونا الكبير سلوه يجبكم عن موبقات هذا الأرعن اللعين وكأنمما ثارت الحمية فى نفس سيك فأقبل على الغلام يصفعه وهو يقول له :

إلى المنزل أيها الأحمق وإلا وإلا أدبتك شر تأديب وصدق الرعاع تلك الرواية فعدوها مهزلة عائلية دون أن يعلموا ما تنطوى عليه من مأساة فانصرفوا بعد قليل إلى شئونهم وهم يقولون ماذا على الأخ الأكبر لو أدب اخاه الأصغر .

وأقفر الطريق من السابلة والمارة فأيقن اوايفر من سوء المصير ووثق من أنه لا فائدة ترجى من الصراخ والاستغاثة فاستسلم لمشيئة الأقدار وسمع سيك يقول له مهدداً ضع يدك فى يد نانسى وسر معها إلى حيث تقودك وسأتبعكما عن كثب فإن حاولت الهرب أو التفوه بكلمة أطلقت عليك كلبى الضخم فمزقك تمزيقا أسمعت أيها الوقح فأذعن أوليفر المسكين البائس لأوامر ذلك الرجل الغليظ الكبد ومد يده اليسرى إلى نانسى فأمسكت بهاوسارت به فى صمت وسكون فمازالت تلك القافلة تسير من طريق قذر إلى طريق أقذر ومن زقاق ضيق إلى زقاق أضسق حتى زصلت بعد نصف ساعة إلى منزل متهدم يبدو عليه أنه خال من السكان فطرق سيك الباب ثلاث طرقات فانفتح على الفور وتقدم سيك وهو إلى الدهليز يصيح : تحية وسلام.

وما هى إلا ثوان حتى برز الغلام جاك فى الدهليز وبيده مصباح خاغت الضوء فأنار السبيل للقادمين فوصلوا بعد قليل إلى غرفة فسيحة فهب إلى لقائهم اليهودى العجوز والغلام شرلو فرحب أهل البيت بهم ترحيبا جميلا ومان اليهودى العحوز يفرك يديه تارة ويداعب لحيته تارة أخرى وهو فرح بمقدم أوليفر .

وبدأت النكات والدعابات الثقيلة تنهال على أوليفر وهو صامت ذاهل يندب فى نفسه حظه الأنكد الذى عاد فرماه فى مخالب أولئك الوحوش وكان أكثر ما يحز فى صدره حكم السيد براون عليه عندما يترقب عودته فلا يراه فسوف يرميه ولا شك بالخيانة والاحتيال .

كان أوليفر يفكر مثل هذا التفكير النبيل حين أخذ الغلامان جاك وشرلو يزعجانه بأقوالهما الغليظة فمن قائل له وهو يتحسس ملابسه : ويحك أنى لك هذه البذلة الجميلة ومن هازئ به وهو يشير إلى الكتب التى يتأبطها ىويقول : لقد أصبح صاحبنا عالماً من العلماء هيا حدثنا عن محتوى هذه الكتب اللهم إلا أن تكون قد سرقتها فلن تفقه فيها شيئاً هاتها أيها اللص فما شأنك أنت والكتب ؟ وهجم عليه وجرده من تلك الكتب فارتمى أوليفر عند قدمى اليهودى العجوز وقال له متوسلاً : يا سيدى إن هذه الكتب ملك السيد الكريم النبيل الذى ىوانى ودلاولانى وأطعمنى وكسانى فبالله عليك إلا أرجعتها إليه حتى لا يظن بى الظنون

وقهقه العجوز ضاخكا ساخراً وضحك معه سيك والغلامان وقدمت فى تلك الأثناء الفتاة بتسى من الخارج دون أن تشعر أحدا بقدومها لكىيضئ لها الدهليزفقد كانت معتادة على السير فى الظلام فالتفت الحاضرون إليها ونسيت أن تقفل باب الغرفة فاغتنمها أوليفر فرصة ثمينة وطار الى الباب وخرج منه وهو يصيح : المعونة المعونة أدركونى ياناس أغيثونى من هؤلاء الشياطين وجرى اليهودى العجوز والغلامان وراء أوليفر وهم سيك أن يطلق كلبه عليه فحالت نانسى دون ذلك ووقفت بينه وبين الكلب وهى تقول: لا لن يخرج الكلب من هنا حرام عليكم تعذيب هذا الغلام المسكين

فانقض سيك عليها ودفعهاا عن الباب دفعة قوية رمتها فى زاوية من زوايا الغرفة فنهضت تريد أن تثأر لنفسها من سيك ولكن الباب فتح فى تلك اللحظة ودخل منه اليهودى العجوز والغلامان وهم يدفعون أمامهم أوليفر فنظرت إليه نانسى فرأته شاحب الوجهمرتجف الأوصال فاستيقظ فيها الضمير الحى وندمت أشد الندم على الجريمة التى ارتكبتها فى إعادة أوليفر إلى هذه البؤرة من الفساد واللصوصية .

ولقد كادت تفقد وعيها عندما رأت اليهودى العجوز قد تخلى عن أوليفر قليلاً ومضى إلى بعض زوايا الغرفة وعاد منها بعصا غليظة وأهوى بها على أوليفر وهو يقول له : أكنت تريد أن تهرب فتجمع علينا رجال الشرطة والجيران أيها الحقير ؟ فتفادى المسكين الضربة حينما هجمت نانسى على اليهودى العجوز كاللبؤة فقدت أشبالها فجردته من عصاه ورمتها فى الموقد وتحفز سيك ليؤدب الفتاة نانسى فرده العجوز اليهودى وقال دعها فسوف يعود إليها رشدها وينقذها من ثورة نفسها ومن صوت الفضيلة التى تهتف بها .

وأشار العجوز إلى الغلام جاك أن يقود أوليفر إلى بعض الغرف المظلمة فى المنزل ويقفل عليه الباب ففعل ورأى فيها أوليفر فراشاً معداً فانطرح عليه وهو متعب مثقل من الغم والإعياء فأخذته سنة من الكرى فنام نوما عميقاً .

انتظر السيد براون على أحر من الجمر رجوع أوليفر من المهمة التى أوكله بها ولكن طال انتظاره دون جدوى ومرت الساعة تلو الساعة حتى انتصف الليل فآوى إلى فراشه مهم قلق نادم على أن سمح للغلام بالخروج وحده فى مثل تلك الساعة التى خرج فيها .

ولم يقطع السيد براون ولا مديرة المنزل الأمل فى عودة أوليفر إليهما فكانا كلما قرع قارع باب الدار هرع كل منهما إلى نافذة من النوافذ وهما يأملان أن يكون القادم إليهما أوليفرالحبيب فخاب فألهما غير مرة وطويا قلبيهما على المرارة والأسى .

وانقضى أسبوع على غياب أوليفر فقطعا عندئذ كل أمل فى رجوعه وساورت نفس السيد براون الوساوس فنشر فى إحدى الصحف إعلاناً يمنح فيه خمسة جنيهات لمن يدله على أخبار غلام فى نحو العاشرة من عمره يدعى أوليفر تويست عاب عن منزله منذ أسبوع ثم ضمن الإعلان وصفاً إضافياً لصفاته الجسمانية .

وفى صباح اليوم التالى الذى نشر فيه الإعلان كانت احدى مركبات السفر العامة قد وصلت إلى باب من أبواب لندن فتوقفت قليلاً للاستراحة ونزل منها بعض الركاب يتمشون قليلاً بهد طول الجلوس وكان من بينهم السيد بمبل موظف الملجأ الذى عرفناه فى مستهل القصة فمر به أحد باعة الجرائدفاشترى منه صحيفة من صخف الصباح وشره يطالعها فاستوقفه الإعلان عن أوليفر فقرأه عدة مرات وعمد إلى نظارته فمسحها مرة بد أخرى وركظها على عينيه تركيزا محكما وأعاد قراءة الإعلان ودقق طويلاً فى الأوصاف المنشورة عن الغلام فوثق كل اللثقة بأن أوليفر هذا هو أوليفر الذى يعرفه فلما وصلت المركبة إلى وسط المدينة عدل عن الذهاب إلى المكان الذى كان يقصده فيها لقضاء بعض شئونه وتوجه توا إلى منزل السيد براون فسارع هذا إلى استقباله ولحقت به مديرة المنزل عندما علما أن المقبل عليهما إنما جاء يحدثهما عن الغلام أوليفر.

تبادل القوم تحية الصباح فى عجلة ولهفة ثم استهل السيد براون الحديث فقال : قلت يا سيدى إنك جئت تحدثنى عن الغلام أوليفر بعد أن قرأت الإعلان الذى نشرته عنه فقال بمبل : نعم يا سيدى فقال السيد براون : لست أعلم مقره ولكنى استطيع ان ازودك عنهة بأنباء وأخبار لا يعرفها غيرى فتململ السيد براون وتململت معه مديرة المنزل وقد كانا يطمعان فى أن يعرفا مكانه فيذهبا إليه ويعودا به إلى كنفهما غير أن السيد تذرع بالصبر وقال : هات ما تعرف عنه يا سيدى فقال بمبل : وقد اعتدل فى جلسته بعدما رشف آخر جرعة من القهوة والحليب : أوليفر هذا غلام يتيم مجهول الوالدين وأغلب الظن ألأن والديه ينتميان إلى اسرة فقيرة لا تقيم للفضية والأخلاق وزنا فهما من بيئة يعيش فيها الشر والفساد والرذلة فغشيت أعين السيد براون ومديرة المنزل غشاوة من الحزن والاستغراب فاستأنف بمبل حديثه قائلاً ولد أوليفر فى ملجأ البر والاحسان وأنا الذى أطلقت عليه اسم اوليفر تويست ثم عهدنا به إلى دار رعاية الطفل حتى بلغ التاسعة من عمره وكان فظ الأخلاق بليدا كسولا نهما لا يتورع عن الاعتداء على الأطفال من زملائه اليتامى فاستعاده الملجأ واستودعه أحد الصناع الكرماء ليلقنه مهنة يكسب بها رزقه فتشاجر ذات يوم مع عامل من عمال ذلك الصانع الذى آواه ومأطعمه فكاد يقتله وهرب ثم هرب تحت جنح الظلام خوفا من العقاب وانقطعت أخباره عنا

وكأنما اكتفى السيد براون بما سمع فنقد الرجل الجنيهات الخمسة التى وعد بها فى الإعلان فقبضها بمبل واستأذن فى الانصراف فودعه السيد براون حتى باب الحديقة .

أما أوليفر الذى دار الحديث عنه فكان فى ذلك الصباح جالساً إلى الغلامين جاك وزشرلو وهما يغريانه بالإذعان لمشيئة اليهودى العجوز والانخراط فى سلك العصبة التابعه له حتى تصلح حاله ويتوفر المال فى جيبه ويعيش عيشة العز والسعة وإلا بقى طيلة حياته فقيرا ذليلاً متسولاً وأراد جاك أن يمعن فى إغرائه فطفق يذرع الغرفة ويده اليمنى فى جيبه تعبث بما فيها من نقود فنظر إليه أوليفر نظرة المشمئز وقال :أتفخر بمال جاءك عن طريق السلب والسرقة فقال جاك وقد لأشعل لفافة من التبغ : لو لم اكن حقيقا به لما جائنى وعلام يشقى الانسان ويتعب اذا هو استطاع ان يحصل على المال عن طريق هين سهل فقال أوليفر ولكنه مال حرام فقهقه جاك وشرلو معا من سذاجة أوليفر وسلامة طويته ودخل عليهما اليهودى العجوز وهما يضحكان فأنهيا إليه حديثهما وحديث أوليفر فأمن على كلامهما ولأخذ يقص على الغلمان أنباء بطولته فى أيام الحداثة والشباب وكيف كان يتفنن فى النشل والسرقة حتى جمع ثروته وكان هذا العجوز منذ صباح الليلة التى أعيد فيها أوليفر إلى وكر اللصوص قد أخذ يتلطف فى حديثه مع اوليفر ويغمره بعطفه ورعايته ويقدم له اطايب الطعام ويسرد على مسامعه العظة تلو العظة فى محاسن السرقة وما تجلبه على السارق من رفاهة العيش ورغده ولكن أوليفر كان يعير آذانا صماء ويترقب اليوم الذى يستطيع فيه أن يهرب من ذلك الجحيم ولكن هيهات فقد كانت الحراسة شديدة عليه حتى لو اراد أن يمكر بالعجوز ويتظلهر بثبول عرضه وإغرائه . وعاد اليهودى العجوز إلى محادثة أوليفر ثم أمر الغلامين جاك وشرلو بالخروج إلى عملهما ووعدهما بالجزاء الأسنى لو أتياه بعدد من الساعات الذهبية والخواتم فخرجا هانئين سعيدين فلما انفرد بالغلام أوليفر قال له : لتصبحن رجلاً عظيماً لو سمعت نصحى وعملت بارشادى فقال له أوليفر متوسلاً ناشدتك الله يا سيدى

إلا تركتنى وشأنى وأطلقت سراحى   إن نفسى لا تطاوعنى على النشل والسرقة ولو شئت أن اقهرها عليهما ما استطعت ولو تمرنت عليه العمر كله فضحك العجوز حتى بدت نوالجذه وقال أنصحك بأن تكون رهن إشارة الفتى سيك وأطوع له من بنانه فهو كفيل بأن يدربك خير تدريب .

وكاد أوليفر أن يعرب عن خوفه من سيك ورأيه الصريح فيه لولا أن دخل سيك عليهما فجأة فحياهما تحية مبتسرة فرد العجوز على تحيته بمثلها وقال يخاطب أوليفر : اتركنا وحدنا قليلاً ياولدى واقض بعض الوقت فى الغرفة الملاصقة ولا تطمع فى الهرب فأنت تعلم أن ليس لها من منفذ غير هذا الباب الذى تراه فى أقصى هذه الغرفة .

فمتثل أوليفر لمر العجوز فلما خلا الجو للأثيمين قال العجوز : متى قررت الهجوم على المنزل الذى طلبت منك أن تسرقه ؟ فقال سيك : فى ليل غد فقال العحوز :

سأرسل معك أوليفر وسيكون لك عونا ثمينا فأنا أعرف ذلك المنزل كل المعرفة فحسبك أن ترفع أوليفر ،اى الكوة الصغيرة فينفذ منها إلى داخل المنزل ويفتح لك الباب فتدخل منه لأنت وصاحباك اللذان اخترتهما فقال سيك : لست أدرى لماذا تصر على ضم هذا الغلام إلينا مع ما هو عليه من عناد ومكابرة فلو هرب منا مرة أخرى لم نأمن من أن يشى بنا ويكشف أمرنا فقال اليهودى العجوز ضاحكاً أنت يا سيك تعوزك الفراسة وإن لم تعوزك الجرأة والوقاحة إن هذا الغلام على جانب كبير من الذكاء فلو انضم الينا راضيا مختارا كان لنا سند أى سند أفهمت ؟ فقال سيك : وكيف السبيل إلى اصطحابه معنا وهو نافر منا ومن عملنا ؟ فقال العجوز :

عليك اولاً أن تبعث نانسى إلى فى هذا المساء فأسلمها إياه فتسوقه إليك دون أن يعلم من الأمر شيئاً وليس غير الفتاة نانسى من يستطيع أن يصحبه إليك فقد وثق بها الغلام ومال إليها بعد تلك الليلة التى دافعت فيها عنه وناصرته فقال سيك: ومن يقنع نانسى بالقيام بهذا العمل وبالسكوت عن أمرنا المبيت؟ فقال العجوز:أنت فنانسى تحبك وتخشاك فاستعمل التهديد والوعيد وعليك ثانياً أنة تكتم عن الغلام الغاية من اصطحابه معك إلى هدفك حتى تصلوا جميعاً إلى المنزل المقصود ثم علك ثالثاً أن تتوعده طول الوقت فيكون لك سامعاً مطيعاً .

وفى مساء ذلك اليوم أقبلت نانسى إلى منزل اليهودى العجوز فحيته وحيت أوليفر وقالت له : هيا بنا يا عزيزى جئت أصحبك إلى مكان جميل امين ففرح أوليفر وأعتقد أن ساعة خلاصه من ذلك السجن قد حانت فلما صار هو والفتاة خارج الدار رأى مركبة تتنتظرهما فركبها وهو مستغرب مندهش وسار بها الحوذى دون أن يسألهما عن المكان الذى يقصدانه فتطلع أوليفر إلى نانسى متسائلاً إلى أين يا نانسى ؟ فقالت له بصوت عال : كإلى مكان جميل يا أوليفر ثم همست فى أذنه قائلة لقد أكرهت على المجيء إليك واصطحابك ... انظر إلى معتصمي وعنقي تجد آثار الضرب فيها ... إن حياتك وحياتي في خطر لوسمع هذا الحوذى حديثى معك ... فاصبر ولا تيأس من رحمة الله ، فلعل ساعة خلاصك من أيدي هذه الطغمة الشريرة قريبة غير بعيدة .

والتزمت نانسي والغلام الصمت بعد ذلك ، وجرت بهما المركبة في أزقة حقيرة حتى وصلت إلى منزل زري في أحد الأزقة فوقفت عنده ، فترجلت نانسي وهي ممسكة بيد « أوليفر» ودخلت المنزل فإذا سيك ، واقف ينتظرهما ، وهو مقطب الحاجبين ، عابس الوجه ، فابتدر يخاطب أوليفر قائلا :

-لماذا تأخرت أيها الغلام البليد ؟ فقال أوليفر، خائفا :

--لم نتأخر ياسيدى فشقة الطريق واسعة ، ولقد قطعتها بنا المركبة دون أن نعرج على مكان من الأمكنة.

فقال سيك والغضب لا يزال مرتسما على وجهه **:**

-حسن ... ها هي ذي المائدة معدة وحافلة بما يشتهى الإنسان من الأطعمة اللذيذة ، فاجلس إليها وتناول عشاءك معنا ، وعندما تفرغ من الطعام فانطرح على ذلك السرير الذي تلقاه في زاوية الغرفة ، وخذ نصيبك من النوم فسوف نستيقظ مبكرين جدا ، ونغادر المنزل في الخامسة فلم ينبس »أوليفر « ببنت شفة ، ولا جرؤ على أن يسأل ذلك الوحش المفترس إلى أين المسير في الصباح الباكر ، فرأى سيك ونانسي قد جلسا إلى المائدة فحذا حذوهما وتبلغ بقليل من الطعام ، ونفسه عازفة عنه ، ثم مضى إلى السرير واستسلم للرقاد ...

وقبيل الساعة الخامسة ، شعر بالسرير يهز هزا عنيفا ، فوثب ناهضا ، فأمره سيك بارتداء ملابسه ، فأذعن ساكنا وقبل أن يخرج به من المنزل وقفه سيك وقال له وهو ممسك بمسدس في يده :

-أتدري ما هذا ؟ فقال أوليفر: - إنه مسدس ياسيدى فقال سيك :

-انظر ... لقد وضعته في جيبى وفوهته إلى الخارج، فإن بدا لك أن تهرب أو تتلكأ في تنفيذ ما آمرك به في أثناء رحلتنا ، ألهبت دماغك برصاصه ، وتركناك جسدا بلا روح ... أفهمت ؟

فحال ذعر الغلام دون الجواب، فاكتفي بأن هز رأسه علامة الطاعة والخضوع ، وحانت منه التفاتة إلى نانسى ، فقرأ في عينيها معاني الألم والرثاء له ، فخاف من العاقبة التي تنتظره، ولكنه تشجع إذ رأى إنسانا يعطف عليه في محنته الأليمة .

وخرج سيك وأوليفر من المنزل ، وبقيت نانسى فيه ، فما كادا يخطوان خطوة واحدة ، حتى رأي أوليفر المركبة التي أقلته إلى سيك مساء أمس واقفة قرب الباب ، وكانها تنتظرهما ، فاستوى سيك وأوليفر فيها، فانطلقت بهما من غير سؤال ولا جواب .

لحظ أوليفر ، وهو غارق في صمته وسكونه ، أن المركبة بعد أن اجتازت بهما الدروب الضيقة والأزقة القذرة ، قد انتهت إلى الطريق العام، وهناك أخذ جواداها ينتهبان الأرض انتهابا ، فأدرك أنهما غادرا مدينة لندن ، وأنهما يقصدان إما قرية من القرى في ضواحي العاصمة، أو مدينة من المدن القريبة وكان سيك هو أيضا صامتا لا تنفرج شفتاه عن كلمة من الكلمات، ولكنه كان من حين إلى آخر، يخرج مسدسه من جيبه، ويعبث به قليلا ، ثم يصوبه إلى أوليفر ، وهو يقول له :

-تذكر ما أوصيتك به ، وإلا فأنت تعرف عاقبة العصيان جرت المركبة بالمسافرين حريا حثيثا حتى انتصف النهار ، فوقفت عند باب مطعم من المطاعم ونزل سيك منها وجر معه أوليفر ودخلا المطعم ، فتناولا فيه طعام الغداء ثم دخن سيك عدة لفافات من التبغ ، ثم خرجا واستقلا المركبة فتابعت بهما السير إلى حيث يقصدان بل إلى حيث يقصد سيات فما كان أوليفر ليدري كما علمنا إلى أين ستنتهى بهما خاتمة المطاف، ولا كان يدري الغرض من هذه الرحلة .

واستمرت المركبة تجرى بهما حتى توارت الشمس وراء الأفق ، وبدأ المساء ينتشر على الأمكنة والبقاع ، وعلى حين فجأة وقفت المركبة

على مقربة من أحد الجسور ، فترجل الحوذي وترجل بعده سيك و أوليفر ثم أشار سيك ، إلى الحوذي إشارة خاصة ، وأمسك بيد أوليفر وسار به في خطى واسعة ، فما شك الغلام المسكين إلا أن رفيقه الظالم قد جاء به إلى هذا المكان ليغرقه في النهر ، ويتخلص منه في هذا المكان البعيد ، فلا يقف أحد على جريمته ، فارتعدت فرائص الغلام عندما جالت بخاطره هذه الفكرة ، وازداد يقينه بالخطر الداهم حين رأي سيك لايجتاز به الجسر، بل ينزل من أحد جانبيه إلى مستوى النهر ، فبدا له أن يصيح مستغيثا ، ولكن تذكر المسدس في جيب غريمه ، ووازن بين الموت قتلا بالرصاص أو غرقا في مياه النهر ، فآثر الصمت مستسلما لمشيئة الله ، منتظرا مصيره المحتوم .

وصل سيك به إلى حافة النهر ، ولكنه لم يرمه فيه كما توهم؛ بل سار به في درب ضيق متعرج، حتى بلغا كوخا من الأكواخ مقاما على جانب النهر ، فتنفس أوليفر الصعداء لما رأى سيك يطرق باب الكوخ طرقا خاصا ثم يفتح الباب ويدخل منه إلى الكوخ ، ويستقبله فيه رجلان تبعث سحنتهما البشعة بالذعر في القلوب ، ويقول له أحدهما وهو يشير إلى أوليفر : من هذا ؟

فأقبل سيك ، على الرجلين يحدثهما حديثا خافتا ، فبدت على الرجلين علامات الطمأنينة ، بل لعل وجود الغلام قد سرهما، ثم دعوا سيك والغلام إلى تناول الطعام ، فأكلوا جميعا ثم قال سيك يخاطب أوليفر :

تمدد على هذا المقعد وتمتع بقسط من الراحة فإننا سنستأنف السير في منتصف الليل .

فامتثل أوليفر للأمر ، وكان في أشد الحاجة إلى النوم والر احة وفي منتصف الليل دهش الغلام إذ رأى الرجلين يصطحبانهما ، ويركبان معهما المركبة التي جاء هو وسيك بها ، وكانت تنتظر القوم حيث وقفت على مقربة من الجسر فبدأ أوليفر يفكر ويطيل التفكير لعله يدرك الهدف من هذه الرحلة الشاقة مع هؤلاء الأبالسة ، فما استقر في ذهنه رأى يرتاح إليه وبعد مسير ساعة من الزمان، وقفت المركبة ونزل منها الراكبون وساروا قدما بين المزارع حتى وصلوا إلى منزل، جميل تام في وسط حديقة غناء، يحيط بها سور قليل الارتفاع ، فوقف الرجال الثلاثة عند جانب من جوانب السور ، وأخرج سيك مسدسه وسدده إلى دماغ أوليفر وهويقول له همسا: تذكر وحذار ثم تسلق أحد الرجلين السور وهبط منه إلى الحديقة ، ورفع سيك الغلام وقذف به إلى الحديقة ، فتلقاه الرجل الذي سبقهم إليها ، لحق به سيك والرجل الآخر ، ومشي الرجال الثلاثة والغلام في خطوات خفيفة إلى أن بلغوا باب المنزل ، متسترين برداء الظلام ، وهناك انفرد سيك بالغلام وهمس في أذنه :

-انظر إلى هذه الكوة الصغيرة في أعلى الجدار سنفتح بأدواتنا بابها الخشبي ، وسنرفعك إليها فتجتازها وتهبط منها إلى السلم ، فهو غير بعيد منها ، ثم تنحدر منه إلى باب المنزل فتشد مزلاجه وتفتحه لنا وإياك أن تحدثك النفس بغير هذا الذي آمرك به ، وإلا مزقت جسدك برصاص مسدسي أني كنت فما وسع أوليفر ، إلا الإذعان ، ولكنه كان قد صمم في قرارة نفسه أن يهبط من الكوة إلى السلم، ويملأ المنزل صياحا واستغاثة ، لعل سكان المنزل يهرعون إلى نجد ته ، وينقذون أنفسهم من هؤلاء اللصوص الذين جاءوا يغيرون عليهم ويسلبونهم المال والمتاع .

وقف أحد الرجلين مستندا إلى الجدار وعاون الرجل الثاني على أن يرتفع إلى كتفيه ، فلما استقر عليهما بلغ الكوة فأخذ يعالج بابها بما في جيو به من أدوات حتى فتحه ، وهنا اقترب سيك، من أوليفر ورفعه بكلتا يديه ، وقذفه إلى الرجل الذي فتح باب الكوة ، فتلقاه بيده اليمنى ، في حين أمسك باليسرى حافة الكوة حتى لا يسقط ، وبعد أن استعاد توازنه ، دفع بالغلام إلى مدخل الكؤة ولكن لمع في المنزل على حين غرة ضوء مصباح أعقبه طلق ناري سقط أوليفر على أثره مرتميا إلى الحديقة ، فتلقفه سيك ثم علا الضجيج في المنزل، فلم يسع اللصوص إلا الهرب ، فتسلقوا سور الحديقة ولاذ الرجلان بالفرار ، أما سيك فكان أبطأ منهما حركة ، لأنه كان يحمل أوليفر مغشيا عليه .

وشعر سيك بعد قليل أن سكان المنزل قد غادروا إلى مطاردتهم ، فأصوات الناس ونباح الكلاب تمزق سكون الليل ، وتصل إليه فتحدوه على الإسراع في الهرب ، ولكن كيف السبيل إلى الفرار وهذا الغلام المغمى عليه يعوقه عن الركض والابتعاد عن المطاردين ؟

وزاد في قلقه وحنقه سماعه دوى عجلات المركبة التي كانت تنتظره، فعلم أن زميليه قد استقلاها وهربا بها . وبينما هو يجري على غير هدى، عثرت رجله فوقع في حفرة فتدارى بها هو والغلام، على أمل أن يستأنف الهرب عندما تخف وطأة المطاردة ، وحينها وضع أوليفر في أرض الحفرة ولحظ أن ذراع الغلام اليسرى يسيل منها الدم ، فأدرك أن الطلق الناري قد أصابه دونهم جميعا، فأخذ الشال الملفوف على عنقه ، وربط به جرح أوليفر ربطا محكما فمنعه من النزيف ، وقضى ساعات طويلة في ذلك المخبأ ، لا يستطيع الخروج منه

. وكان كلما هم بمغادرته طقت مسمعه أصوات المطاردين فقبع فيه ، وعندما بدأت خيوط الفجر تلوح في الأفق، نظر إلى وجه أوليفر فرأى جفونه تتحرك كالمستفيق من نومه أو غيبوبته ، فقال في نفسه : إن هذا الغلام سيعوقني عن الحرب ، وجرحه علامة مميزة تلفت الأنظار إلىفي هذه البقعة ، فقرر أن يتركه ويرحل عنه ففعل .

وطلع الصباح من خلال الغمام الذي كان يملأ السماء ، فأفاق أوليفر وهو يرتجف من البرد ، وكان لا يزال خائر القوى ، فاستغرب من وجوده في تلك الحفرة ، فتحرك قليلا من موضعه ، فاشتد عليه الوجع ، فتحسس ذراعه اليسرى فإذا هي تنزف دما من ثنايا رباطها المحكم ، فصاح متألما وبقي يزفر ويتنهد حتى طلعت الشمس ، فاستجمع قواه وخرج من الحفرة ، وأخذ يجيل الطرف فيما حوله ، فلم يعرف أين هو، فمشي بين المزارع لعله يجد أحدا يستنجده ويعتني بجرحه ، وظل يمشي متحاملا على نفسه إلى أن لاح له منزل قريب محاط بحديقة مدورة ، فقام في ذهنه الصغير أنه يعرف هذا المنزل وتلك الحديقة ، ولكنه لا يذكر متى رآهما ، فسار إليها يتعثر مرة وينهض أخرى ، فوصل إلى باب الحديقة وكان مفتوحا ، فدخل منه ومشى إلى باب المنزل وهو يكاد يقع من شدة الألم والإعياء ، فما إن يحدق إلى المنزل وإلى الكرة التي في أعلى الجدار ، حتى ينجلى له الموقف ، ويتذكر حوادث الليلة الماضية ، ويعلم أنه المنزل الذي حاول اللصوص سرقته معتمدين عليه في غرضهم الأثيم ، ففكر أن يعود على أعقابه هاربا لئلا يتهم بجريمة السرقة ، ولكنه سقط مغشيا عليه عند الباب .

وكان سكان المنزل يتألفون من أرملة عجوز وصبية حسناء ومن طباخ وخادم وخادمة ، ومدبر للمنزل يدعى جيل نشأ في كنف الأسرة وراني عندها فاكتسب بذلك بعض الرعاية والسلطان ، وكان هو الذي أطلق النار على المعتدين في الليلة البارحة فلما سمع جيل حركة عند باب المنزل أمر الخادم بأن يستقضى الأمر فعاد إليه وهو يقول - : غلام جريح يا سيدى فسارع كل من في المنزل ما عدا الأرملة العجوز إلى رؤية ذلك الغلام الجريح ، فصاح جيل مزهوا مفتخرا يخاطب الصبية الحسناء :

» -مولاتي إنه أحد اللصوص الذين أغاروا علينا ليلة أمس ...

إن رصاصتي قد أصابت منه مقتلا وتفرست الفتاة في وجه أوليفر ، فتحركت في فؤادها الشفقة به والرثاء لحاله فقالت - : انقله يا جيل إلى غرفتك ، واستدع الطبيب في الحال ،

وكونوا جميعا معه حلماء كرماء النفس فقال جيل -مولاتي ! إنه أحد اللصوص الذين هاجمونا ليلة أمس فقالت الفتاة غاضبة :

-إنه غلام جريح وكى ، وسننظر بعد ذلك فيمن يكون ونفذ قرار الفتاة ، فنقل أوليفر ، إلى غرفة جيل وأقبل الطبيب بعد قليل فضمد جرح الغلام ، وأسعفه الإسعاف اللازم وكانت الفتاة والأرملة العجوز تنتظرانه في البهو ، فاستوضحتاه شأن الجريح فقال - : لقد انتزعت الرصاصة من ذراعه وضمدت جرحه ، فهو الآن في غيبوبة ، وقد يفيق بعد ساعة أو ساعتين ، وسأعود إلى زيارته قبيل الظهر ، ولكني أرجو أن لا يزعج بالأسئلة وأن لا يحمل على الكلام .

وسكت الطبيب هنيهة ثم قال : - وهكذا يا سيدتي عنيتما بمن حاول سرقتكما البارحة - إنه أصغر من أن يكون في عداد اللصوص ، فقال الطبيب : - اللصوصية كالموت يا آنستي ، فلا تفرق بين الأعمار ، لكن مخايل الغلام لا تدل على الإجرام ، ثم ما يدرينا أنه أحد اللصوص الذين هاجمونا البارحة ؟ أيكفي أن نرى غلاما جريحا فنوقن أنه اللص الذي أصابه جيل برصاصته ؟ فقال الطبيب - : قد تكونين على صواب يا آنستي ، وكيفما كان الأمر فالحقيقة

استنكشف عما قريب فقالت الأرملة العجوز - **:** لقد أبلغنا رجال الشرطة بالسرقة، فهل نتركهم يستجوبونه إذا حضروا ؟ فقال الطبيب - : كلا **!** فحمله على الكلام يعرضه لخطر محقق ولك ياسيدتي أن تقولى لرجال الشرطة إن الطبيب المعالج يرجو منهم إرجاء استجواب الغلام ريثما يزول عنه الخطر فقاطعت الفتاة الطبيب قائلة - **:** إننا نتحدث عن هذا الغلام تحدث المقتنع بجرمه ، في حين أنه قد يكون بريئا ، ونفسي تحدثني أنه بريء فود ع الطبيب الفتاة والسيدة الأرملة ، ووعد بالعودة بعد ساعات قلائل ولم يكد الطبيب يبتعد من المنزل حتى أقبل رجال الشرطة يحققون في حادث السطو ، ويعاينون الأمكنة ، ويستجوبون سكان البيت ، ولما أرادوا أن يدخلوا حجرة جيل تصدت لهم الفتاة وأخبرتهم أن فيها غلاما جريحا جاءهم في هذا الصباح مستغيثا مستنجدا، فاستدعوا له الطبيب وحاله الآن تنذر بالخطر ، ثم بينت لهم الفتاة أنها لا ترى صلة من الصلات بين هذا الغلام وحادث السطو ، فهي لاتحمل على الظن أنه من اللصوص الذين يسطون على المنازل ، ولو فرض المستحيل وكان من سطوا على منزلنا لما جاء إلينا يسعي عن حتفه بظلفه .

فوثق رجال الشرطة فى كلام الفتاة ، وعدلوا عن استجواب الغلام ، ولكنهم اشترطوا عليها أن يكون رهن العدالة إذ ما بدا للقضاة أن يحققوا أمره ويستجوبوه ، فعاهدتهم على ذلك **..**

ومكث أوليفر عدة أيام طريح الفراش وصريع الحمى ، ولم يدخر الطبيب وسعا في معالجته ، ولا توانت الفتاة الحسناء واسمها وردة عن مداراته والعطف عليه ، حتى فارقته الحمى وأخذ البرء يتمشى في جسده السقيم الناحل ويوم استطاع أن يستوي في سريره متماثلا للشفاء،

قص على الآنسة ، وردة ، في حضور السيدة الكبيرة والطبيب قصته التاعسة فما شك أحد في روايته ، بل رثوا كلهم لحاله ، وأحاطوه بالعطف والشفقة ، ولا تسل عما اجتاح فؤاده من شعور الوفاء والعرفان بالجميل حين رأي الآنسة وردة ، تميل عليه لتصلح من جلسته في السرير ، وتسكب من عينيها عبرتين سخينتين انهمرتا على خده الأيسر، فعصفتا بقلبه ، وحار كيف يعبر لها عن ولائه ومحبته وإخلاصه إزاء هذا الحنان الذي غمرته به . .

شفي أوليفر ، تمام الشفاء ، واستضافته الأسرة ، وقضى معها أيامنا جميلة هانئة .

في ضحى اليوم الذي تحامل فيه أوليفر على نفسه وخرج من الحفرة ومشي وهو جريح محموم يلتمس النجدة والمعونة ، كانت مديرة الملجأ الذي ولد فيه أوليفر جالسة إلى موظف الملجأ تسمع منه الأوامر التي كلفه مجلس إدارة الملجأ أن ينقلها إليها ، وبينما كان الموظف أي السيد بمبل يتحدث بلهجته الخطيرة ، والمديرة تصغي إليه في حذر وانتباه حتى لا تفوتها شاردة ولا واردة من حديثه ، قرع أحد القادمين باب الحجرة قرعا عنيفا فقالت المديرة :

-من القادم ؟ ادخل

وفتح الباب وبدا منه رأس متسولة عجوز ، فقالت لها المديرة في نزق وحنق :

-ماذا تريدين ؟ فقالت المتسولة - : سيدتي ! إن العجوز سالى تحتضر وتعالج سكرات الموت! فقالت المدبرة متضجرة : - : وماذا عساي أن أصنع لها ؟ أفي وسعي أن أرد عنها غائلة الموت ؟ فقالت المتسولة - : كلا فما من الموت مفر ولكنها تتوسل إليك أن تهرعى إليها في الحال قبل فوات الأوان ، فلديها سر خطير تريد أن تفضي به إليك ، ولن تموت مرتاحة الضمير إذا هي فارقت هذه الدنيا ومعها السر المغيب في صدرها فاستأذنت المديرة من الموظف وخفت هي والمتسولة إلى حجرة مهملة من حجر الملجأ كانت مأوى المحتضرة ، فرأت هناك عجوزا أخرى تسهر على المريضة التي كانت أقرب إلى العالم الثاني منها إلى هذا العالم ، فأخلت العجوز المكان للمديرة وخرجت والمتسولة من الحجرة ، فاقتربت المديرة من المحتضرة وقالت لها - : وها أنا ذي يا سالى فاذا تريدين أن تنهى به إلى ؟ فتحت المحتضرة عينيها كأنها عائدة من العالم الآخر ، وقالت لها بصوت خافت يشبه الهمس :

-اقتربي من... يجب أن أقول لك ... أتذكرين أني في هذه الغرفة ، وعلى هذا السرير ، كلفت فيما مضى السهر على سيدة حسناء فتية ، وفدت إلى الملجأ معفرة الشعر والثياب ، مورمة القدمين من طول ما مشت ؟... إن هذه السيدة الجميلة قد وضعت غلاما وماتت ... آه دعيني أفكر في أية سنة كان ذلك قالت المديرة - : لا تحفل بالسنة ... وقولى ما تريدين أن تقوليه ...

فتجدت المحتضرة كمن يستمد القوة من روح خلي وقالت :

-لقد سرقت من هذه السيدة شيئا ... نعم سرقت منها شيئا قبل أن تبرد جثتها أجل قبل أن تبرد جثتها

فقالت المدبرة وقد نفد صبرها » - : قولى ماذا سرقت منها ؟ فقالت المحتضرة :

الشيء الوحيد الذي كانت تملكه كانت تضعه فوق قلبها ... كان من الذهب وربما استطاعت به أن تنقذ حياتها وارتمت المحتضرة إلى الوراء متعبة ، فمالت عليها المديرة وهي تقول

لها بلهفة وفضول - : كان من الذهب ... ثم ماذا ؟ من كانت هذه الأم الفتية ؟ فقالت المحتضرة أوصتى أن أحتفظ به بكل دقة وعناية عهدت إلى بحفظه لأني كنت الإنسان الوحيد القائم إلى جانبها في لحظة وفاتها ولعلي أنا أيضا السبب في موت الطفل ربما أحسنوا معاملته لو عرفوا

وتعبت المحتضرة من الجهد الذي بذلته في هذا الحديث ، فغامت عيناها ، وارتخت مفاصلها ، فقالت لها المديرة جازعة مستطلعة -- **:** وما اسم هذا الطفل ؟ فقالت المحتضرة : - كانوا يسمونه أوليفر ، والذهب الذي سرقته كان وحال الموت دون تتمة عبارتها وأسلمت الروح

وفي ضحى ذلك اليوم أيضا عرف اليهودي العجوز مما طالعه في الصحف أن العصابة قد أخفقت في السطو على المنزل المنشود ، فأحرق الأرم غيظا ، وبات يتوقع أوخم العواقب من ذلك الإخفاق ، ولكنه اطمأن باله بعض الاطمئنان حين قرأ في تلك الصحف أن اللصوص قد تمكنوا من الفرار ، وأن رجال الشرطة والمباحث جادون في أثرهم و بينما كان مستغرقا في تفكيره مساء اليوم التالى ، دخل عليه اللصان اللذان اشتركا في السطو فقصا عليه القصة من ألفها إلى يائها ، فصاح في وجهيهما غضبان هائجا **:** ويحكما من تاعسين والغلام ؟ الغلام ؟

!وراعي اللصان غضب الزعيم فانصرفا لعل الوحدة تهدي من ثائرته ، أما هو فمكث قليلا يضرب أخماسا لأسداس ، ثم تناول قبعته وخرج من الدار قاصدا إلى منزل لا يجتمع فيه إلا المجرمون واللصوص ، فرحب به صاحب المنزل فقال له اليهودي العجوز :

هل موناك هنا ؟ فقال صاحب المنزل كلا ولعله يحضر بعد قليل فقال اليهودي العجوز - **:** حسن أخبره أني في انتظاره مساء غد في منزلي الثاني وغادر العجوز المكان وذهب توا إلى منزل سيك والشرر يتطاير من عينيه وفي أثناء الطريق قال لنفسه : إن كان سيك قد تآمر هو ونانسي على الاستئثار بالغلام ، فالويل لهما من انتقامى دخل المنزل فاستقبلته نانسي باسمة ، فأول معني ابتسامتها ألف تأويل فقال لها :

-أين سيك ؟ فقالت نانسي - : لست أدري فقال وقد حدق إلى عينيها ليستشف مطاوى صدرها **:** والغلام ؟ فقالت في صراحة ظاهرة - : لست أدري فقال العجوز - : لقد قضى سيك ليلته أول أمس في حفرة ، بعد أن أخفق في مهمته ، وكان الغلام معه فقالت :

-أود من صميم الفؤاد لو مات بردا أو جوعا أو برصاصة عابرة ، حتى ترتاح نفسه من حياة الإجرام التي يحياها أما الغلام فكان الله في عونه وأنقذه من مخالبك وبراثنك فصاح فيها اليهودي العجوز - : دعى عنك هذا الرياء... فأنت و'سيك تعلمان حق العلم أن هذا الغلام قصة ، وأني سأجني من وراء تلك القصة مئات الجنيهات إذا أنا قمت بأمر معين فإن أخفيتماه عنى فالويل لكما من انتقامى .

وتركها ذاهلة مدهوشة مما سمعت ، وانصرف يقضي الليل في منزله الثاني وفي مساء اليوم التالي زاره هذا الذي يدعى مونك ولئن لم يظهر إلا الآن في سياق روايتنا هذه ، لقد كان على صلة باليهودي العجوز، يتقابلان سرا ويتآمران معا على الغلام أوليفر فلما تقابلا وجها لوجه قال اليهودي العجوز بصوت ملؤه الحسرة والأسى - : لقد أخفق التدبير الذي دبرته ، وعاد أفراد العصابة خاسئين .

-إنك تصرفت تصرف البلهاء ثم ما لنا وإشراك الغلام في حادث سطو ؟ أما كنت تستطيع أن تجعل منه نشالا فقط كان ذلك يكفيني فقال اليهودي العجوز - : كلا لم يكن من السهل حمله على النشل، فهو غلام ذكى عنيد ، لا يفعل إلا ما يريد ومنذ اليوم الذي جئت فيه تخبرني أن هذا الغلام هو ضالتك المنشودة ، وأنا أجهد في تنفيذ ما اتفقنا عليه وزاد في تعبي وإرهاقى أن الفتاة نانسي أصبحت تدافع عنه ولماذا تبقي عليها ؟ اخنقها ما دامت تعرقل خطتك ولكن حذار على حياة الغلام فموته يسبب لي المتاعب، ولا بد أن تعرف صلتى بالحادث فأفقد كل شيء أريده أن يصبح وغدآ سافلا لا هذا كل وتوقف فجأة عن الكلام ، وتشبث باليهودي العجوز وهو يقول له في ذعر واضطراب - : لقد لمحت خيال امرأة يتلصص علينا ويتنصت إلينا فهدأ اليهودي العجوز من روعه، وأكد له أنه ما من مخلوق رجلا كان أم امرأة يجسر على تخطى عتبة باب المنزل إلا أن يكون منزمرة العصابة ، وهؤلاء لا يتلصصون ولا يتنصتون، بل يدخلون توا حيث يكون فلما لم يقتنع مونك بمنطق العجوز ، شاء هذا أن يثبت له صحة ما يقول ، فأخذ المصباح وجال ومونك في أنحاء المنزل غرفة غرفة ، فما لمحا آثار إنسان ، فانصرف مونك ، ونفسه فريسة للهواجس والوساوس .

وظهر سيك بعد أيام ، فما استطاع أن يخبر اليهودي العجوز بمصير أوليفر ولا استطاع أن يهدي من ثائرته، ثم انقضت عدة أسابيع وما من نبأ عن الغلام ، وكان اليهودي العجوز كلما خلا إلى نفسه طار فكره إلى الغلام أوليفر وود لو عرف مقره فجند له الإنس والجن يختطفونه ويعيدونه إليه، حتى لا يفقد المبلغ الضخم الذي وعده به مونك: مقابل إفساد الغلام ، ولكن أنى له الرجم بالغيب ليعلم أن أوليفر سعيد كل السعادة في ضيافة الأسرة التي آوته ، وأنه يشغل نهاره بصيد العصافير وسقي الأزهار وتسلق الأشجار .

وأقبل أوليفر ذات يوم على الآنسة وردة وقال لها - : في صدري كلام أريد أن أفضى به إليك يا آنسة ، ولكني أخشى أن تتهميني بالعقوق وإنكار الجميل فقالت وردة مبتسمة :

-قل ما بدا لك يا عزيزى أوليفر ولا تخش بأسنا فقال أوليفر : وددت لو على ذلك المحسن الرقيق الفؤاد السيد براون ومديرة منزله التي عطفت على ورعتني ، أنى مقيم عندكم سعيد بضيافتكم .

-ما أطيب عنصرك يا أوليفر وما أنبل شعورك أنا لا أشك في أنهما سيغتبطان لاغتباطك ، فاعلم أن الطبيب الذي عالجك قد وعدنا أن يصحبك إليهما في يوم من الأيام .

ولم يطل انتظار أوليفر ، لليوم الموعود فقد جاءه الطبيب بعد أسبوع ، واستقل معه مركبة الأسرة ، وذهبا يزوران السيد براون لكنهما عادا من رحلتهما والأسى يملأ قلب أوليفر فقد وجدا المنزل خلوا من السكان ، وعليه لافتة للإيجار ، وعلما أن السيد براون ومديرة منزله قد رحلا منذ أربعة أسابيع إلى بلاد الهند الشرقية .

ومرت على أوليفر ، بعد ذلك ثلاثة أشهر ، ذاق فيها أطيب ألوان السعادة في صحبة الآنسة وردة والسيدة الوقور ، وكان جيل ومن حوله من خدم يبالغون في إكرام أوليفر ويتفننون في الحفاوة به ، فقدر أوليفرجميلهم وجميل رجل شيخ من جيرانهم ، نزل من قلبه منزلة حبيبة ، فكان يزوره كل يوم، ويلقنه مختلف الدروس في اللغة والحساب ومبادئ العلوم ، فتقدم أوليفر في فترة وجيزة تقدمنا باهرة ، وجعل الكتاب جليسه وسميره حين لا يكون في صحبة الآنسة وردة أو في صحبة أحد من سكان الدار ، وبلغ من شغفه بالدراسة وتحصيل العلوم أن أصبح لا يأوى إلى فراشه إلا في ساعة متأخرة من الليل، ولا يترك الكتاب من يده إلا بعد أن يثقل جفنيه النعاس فلا يستطيع له دفعا ولا مغالبة

جلس موظف الملجأ ذات يوم إلى مكتبه يصرف بعض الشؤون ، فطاف به الخيال كل مطاف وانتهى إلى أمر من الأمور فتنهد وقال - : لقد مضى شهران على ذلك الحادث، ويخيل إلى أن مدة هذين الشهرين أطول من دهر .

ولعله كان يشير بذلك إلى زواجه ؛ فمن كانت الزوجة الصالحة التي وقع اختياره عليها وبدأ يتأفف من عشرتها ؟ إنها كانت مديرة الملجأ ، فقد ضمن بذلك الزواج الطعام الهنيء والشراب المرىء فضلا عن مبلغ من المال تنقده إياه بعد أن كانت قد ادخرته فلسا فوق فلس .

وبعد أن تنهد الموظف أي السيد بمبل خرج من الملجأ وطاف على عدة مقاه حتى وصل إلى مقهى كان خاليا من الناس ، إلا من رجل واحد انفرد بنفسه وأخذ يحتسي شيئا من الشراب ، فدخل بمبل المقهى ومر بالرجل وحياه ، فرد عليه الرجل التحية غير حافل به ولا مكترث له ، وكان يبدو على الرجل أنه غريب عن المكان ، وأنه قادم من سفر بعيد فلا تزال ملابسه معفرة بالغبارولكنه لما أردف بمبل تحيته بذكر اسمه انتفض الرجل وقال - : لقد جئت إلى هذه المدينة لأبحث عنك ، وها هي ذي ملائكة السماء أو أبالسة الجحيم قد دفعتك إلى دفعا ... جئت أتزود منك ببعض الأخبار ، ومهما بلغت من التفاهة ، فلن أستأثر بها مجانا لوجه الله ... فخذ هذه الدفعة على سبيل المقدم من أتعابك .

ورمي إليه بجنيهين من الذهب ، فأخذهما بمبل وستهما سريعا في جيبه ، وأصغى إلى الغريب يقول له : ابحث في ذاكرتك هيا منذ نحو أحد عشر عاما في الملجأ الذي تديره الآن كان الوقت ليلا ولم يكن المكان إحدى غرف الملجأ بل حجرة حقيرة مهملة فقال بمبل :

-لعلك تشير إلى قاعة الولادة في الملجأ فقال الغريب :

-نعم. فقد ولد فيها غلام كفله الملجأ ثم دفع به عندما ترعرع إلى صانع توابيت ليعمل عنده ولكنه فر منه إلى لندن كما هو مظنون فقال بمبل : أتقصد الغلام أوليفر تويست ما عرفت غلاما أكثر منه عنادا ولا أقبح خلقا فقال الغريب » - : ما جئت لأسمع أحاديثك عنه ووصفك لأخلاقه بل جئت أعرف ماذا حل بالمرأة العجوز التي عنيت بأم الطفل .

-ماتت منذ عهد غير بعيد وكأنما اكتفي الغريب بما علم، فنهض منصرفا ، ولم يدر بمبل ، أفرح الغريب لموت المرأة العجوز أم استاء، ولكنه أدرك بذكائه وفطنته أن كل ما يحيط بتلك المرأة من أخبار وأسرار يهم الرجل الغريب ، فتذكر أن زوجته كانت إلى جوار سالى العجوز عندما لفظت أنفاسها ، وأنها استودعتها سرا من الأسرار فأراد أن يستفيد من الظروف الراهن لعله يكسب منه بعض قطع أخرى من الذهب ، فاستوقف الغريب وقال له :

-أعرف سيدة كانت إلى جانبها حين لفظت روحها ، وأعرف أنها أنهت إليها بس خطيرفقال الغريب - : وهل لي أن أقابل هذه السيدة ؟ فقال يمبل يمكنك ذلك ولكن بوساطتي أنا فإن شئت جمعتك بها غدا : فقال الغريب - : حسن . أنتظركما غدا في الساعة التاسعة مساء وإليك عنوانى وأخرج الغريب من جيبه ورقة كتب عليها اسمه وعنوانه ، وانصرف عاجلا وتوارى عن الأنظار ، وبقى بمبل عدة دقائق يطالع المكتوب في تلك الورقة ، فعلم أن العنوان يشير إلى بعض الأحياء الحقيرة في المدينة ، أما اسم الغريب فكان مونك .

وفي الموعد المضروب من مساء اليوم التالى ، كان بمبل وزوجته في مسكن مونك فاستهل الحديث قائلا يخاطب السيدة :

-قال لي هذا السيد إنك كنت إلى جوار تلك الساحرة العجوز ساعة استأثرت بها رحمة الله ، وإنها أفضت إليك بأمر من الأمور - وكم يساوي هذا الحديث الذي سأنهيه إليك ؟ فقال مونك إن رأيت فيه بعض الفائدة دفعت ثمنه عشرين جنيها .

لن أبوح به بأقل من خمسة وعشرين جنيها تدفع الآن عدا ونقدا ، سواء استفدت منه أم لم تستفد ، على أنني واثقا كل الوثوق أنك ستجده جليل الشأن والخطر ، وتنتفع به الانتفاع الذي ترجوه وبعد قال وقيل ومساومة ، نقدها مونك المبلغ فقالت - : لما ماتت تلك المرأة العجوز التي نسميها سالى كنت الوحيدة إلى جوارها فقال مونك في صبر نافد :

حسن نعرف ذلك أتمنى حديثك فقالت زوجة بمبل -لقد حدثتنى عن امرأة فتية حسناء ولدت غلاما قبل بضع سنوات ، وهذا الغلام هو الذي عرف فيما بعد باسم أوليفر تويست ثم قالت لي إنها سرقت شيئا من أم الطفل فقال : مونك - : أسرقته في حياة الأم أم بعد وفاتها ؟ فقالت زوجة بمبل - : سرقته بعد مماتها ، وكانت الأم قد أوصتها بأن تحتفظ به حتى تسلمه لابنها ، ولكنها باعته فصاح مونك بصوت ملؤه اليأس : أين باعته ؟ ومتى ؟ ولمن ؟ فقالت زوجة بمبل - في اللحظة التي حدثتني عن هذه السرقة انقلبت ميتة فقال مونك غاضبا - : وهذا كذب صراح إنكما تخدعاني وتخفيان عني كلام المرأة لتبتزا منى النقود فوالله لو علمت بكذبكما لأقتلنكما شر قتلة فقالت زوجة بمبل هادئة ساكنة - : لم تزد على ما قلته لك حرفا واحدة ... وقبيل أن تلفظ أنفاسها ، رأيتها تضع يدها فوق ثيابي ، فلما ماتت وجدت كفها منطويا على ورقة عتيقة فقاطعها مونك قائلا -وعلام كانت تحتوي ؟ فقالت زوجة بمبل :

ما كانت تحتوي على شيء كانت وصلا من بنك الرهون لحامله فاستردت أنا بعد يومين الحلية المرهونة فقال مونك وأين تلك الحلية الآن ؟ فقالت زوجة بمبل - : ها هي ذي .

وأخرجت من جيبها كيسا صغيرة من الجلد ، ووضعته على المنضدة فاختطفه مونك وفتحه بيد مضطربة فإذا فيه خاتم زواج وحلية ذهبية على شكل قلب تحتوي على خصلتين من الشعر ، وقد كتب على الخاتم اسم أنيبيس دون ذكر اسم الأسرة، وحفر عليه تاريخ يرجع إلى قبل مولد الغلام بسنة واحدة ؟

وكان بمبل في أثناء ذلك تنازعه عوامل عدة وهو صامت لا يتحرك ولا يتكلم ، فلما رأى بأم عينه تلك النتيجة اطمأنت بالا على حياته وحياة زوجته من انتقام الرجل ، وضمن الاستئثار بالمبلغ الذي قبضته زوجته وسكت الثلاثة قليلا، ثم قطع مونك حبال الصمت وقال - : سأريكما على الفور مصير هذه الحلية ، و وتمتد إلى زاوية من أرض الغرفة فضغط بيده على مربع خشي ، وللحال انخفض من وسط الغرفة مربع كبير ، فسمع تحته جريان الماء، وكان المنزل قائما على حافة النهر ، ومتصلا به بمجرى من الماء ، فقال مونك -كان في استطاعتي أن أفعل هذا الذي فعلت عندما كنتما جالسين فوق المربع الذي انخفض الآن، فتذهبا إلى أعماق النهر جثتين هامدتين ، أما وقد تبينت صدقكما ، فالمروعة تتقاضاني أن أبقي عليكما ، وسأقذف في النهر بدلكما هذه الخلية اللعينة وأمسك بكيس الجلد الذي يحتوى على الخلية والخاتم، وربطه بقطعة ثقيلة من الصلب ورماه في المجرى وقال : إلى الأعماق أيها الأثر الذميم وبدا الارتياح على وجوه الأشخاص الثلاثة كأنهم تخلصوا من كابوس مخيف، ثم شكر مونك ، السيد بمبل وزوجته وقال لهما وهويودعهما - : وحذار من التفريط بكلمة واحدة مما جرى الآن بينا إن كنتما تؤثران الحياة .

وقضى مونك ليلته في ذلك المنزل ، ورحل في الصباح إلى لندن وقصد على الفور إلى لقاء اليهودي العجوز في منزله الثاني ، فتضايق من وجود الفتاة نانسي هناك ، وكان سيك وهو عليل طريح الفراش قد أرسلها تأتيه ببعض المال من زعيم العصابة فتدارك اليهودي العجوز الموقف وقال يخاطبها :

-ما عليك إن القادم علينا هو أحد تلاميذي ثم التفت إلى مونك ، وقال - : راجنتى ببعض الأنباء ؟ ، فقال مونك -- : بأنباء مهمة ... ولكن ...

وأشار إشارة خفية إلى اليهودي العجوز ، ففهم أنه لا يريد الكلام على مسمع من الفتاة ، وخشي إن هو أوعز إليها بالانصراف أن تطالبه

بالمال الذي جاءت من أجله ، وقد كان في نيته أن يخفض المبلغ إلى النصف ، أو أن يساومها على أقل منه ، فتأبط ذراع مونك خرج به من الغرفة وعلمت نانسي من وقع أقدامهما على السلم أنهما يصعدان إلى الطبقة العليا ، فانتظرت لحظة قصيرة حتى زال وقع الأقدام، فخلعت حذاءها ، وغطت رأسها وذراعيها بالجانب الخلفي من ثوبها ، وصعدت إلى حيث كانا، ووقفت وراء الباب تتنصت إلى ما يقولان ، وقد كتمت أنفاسها ، وعندما انقطع حديث الرجلين ، عادت في سرعة البرق إلى الغرفة التي كانت فيها ، وسمعت مونك يخطو إلى خارج المنزل فلما عاد اليهودي العجوز إليها ، رآها تلبس قبعتها وتهم بالرحيل فقال لها - : و يا لله من شحوب وجهك واصفرارك يا نانسي فماذا فعلت ؟ لم أفعل شيئا وقد سئمت من الانتظار هات النقود .

جاءت الفتاة تطلب خمسة جنيهات فانتهى الأمر باليهودي العجوز إلى أن ينقدها أربعة جنيهات وخمسة شلنات وخمسة بنسات ، فأخذتها ورحلت عن ذلك البيت الجهنمي ، وكانت في أثناء الطريق تفكر في أمر من الأمور وتتميز غيظا من عجزها عن القيام به .

وصلت إلى المنزل الذي تعيش فيه مع سيك المجرم الأثيم ، فوجدته صريع الحمى فجلست إلى جانب فراشه تسعفه بما يطلب ، وهى نهب موزع للأفكار والخواطر ، والجزع والقلق الشديد .

وهبط المساء بسكونه وظلامه ، وتضافر النوم والحمى على سيك ولا سيما المخدر الذي سقته إياه نانسي ، فغرق في غيبوبة طويلة ، فأقبلت نانسي عليه بعد قليل ، وهزته فما أفاق ، فقبلته في جبينه وخرجت من المنزل ، وأخذت تذرع الشوارع حتى وصلت إلى حي من الأحياء الراقية ، ووقفت عند منزل من منازل السراة .

اقتربت من باب المنزل وطرقته في خوف وحذر ، ففتح لها خادم أنيق ، فطلبت منه أن تقابل الآنسة وردة فتردد الخادم طويلا وهو ينظر إلى الثياب الزرية التي ترتديها نانسي فما كانت سيدته ممن يقابل أمثال تلك الفتيات ، وبعد إلحاح وإصرار ، وتوسل وتضرع ، كانت نانسي في حضرة الآنسة وردة .

ولم تكن الآنسة وردة إلا تلك الفتاة التي استضافت أوليفر في بيتها الريفى الجميل ، وحنت عليه حنو الأم على طفلها ، وكانت هي والأسرة ومن معها من خدم قد انتقلوا في مطلع الشتاء إلى لندن وانتقل معهم بطبيعة الحال صاحبنا أوليفر عجبت الآنسة وردة من مظهر الفتاة نانسي ومن إصرارها

على مقابلتها ، فقالت لها بلهجة كلها رقة ولطف وعذوبة :

-أنا وردة يا آنسة فاذكرى حاجتك فغلب الاضطراب على نانسي وطفقت تبكي وتنتحب ، والآنسة وردة ترطب خاطرها حتى تغلبت على اضطرابها وقالت : أنا يا آنسة تلك الفتاة التي حملت أوليفر إلى عصابة اللصوص والمجرمين إن جرمى عظيم ، ولست أدري هل يمكننى الله من التكفير عنه فقالت وردة مدهوشة : أنت ؟ وكيف طاوعك قلبك على ذلك فقالت نانسي وأنا يا سيدتي التي عهد إليها في إصطحابه إلى الأثيم الأكبر الذي سطا هو واثنان من زملائه اللصوص على منزلك في الريف

وما فائدة هذا الاعتراف با آنسة ؟ ارحميني يا سيدتي يرحمك الله ، فأنا أعيش في عذاب أليم من وخز الضمير ، ومن حياة أجر أثقالها بين طغمة من الأشرار

وما الذي يحملك على البقاء بين هؤلاء الناس؟ فقالت نانسي :

لو فارقتهم قتلوني شر قتلة ، اللهم إلا أن أشيى بهم وأكشف أمرهم فيكون جزاؤهم أعواد المشانق ، وفي مقدمتهم رجل لا أستطيع عنه افتراقا ارثي لحالى يا سيدتي واشكرى الله أن رعت السماء طفولتك وحداثتك وأحاطتك بحنان الأهل وبر الوالدين فدمعت عينا الآنسة وردة وفعل كلام الفتاة في نفسها فعله ، وشرد ذهنها يفكر في مصائب الناس وأحوال الأشقياء التاعسين ، ولكن نانسي ، انتشلتها من تفكيرها وهي تقول تحديت الأخطار يا آنسة ، وجئت أعلمك بأشياء تتعلق بالغلام أوليفر فقد يستفيد منها ويكون في ذلك كفارة لى و راحة بال ...أتعرفين رجلا يدعى مونك ؟ ، فقالت وردة :

كلا ! فقالت نانسي :

إنه إذن الاسم الذي يتنكر به في عصابتنا والرجل يعرفك ويعلم أنك في لندن وقد سمعته يدلى بعنوانك ، فاستطعت أن أهرع إليك لقد استرقت السمع ذات ليلة إذ كان يتحدث مع زعيم العصابة ، وهو يهودي عجوز يدعى فاجن فعلمت أنه وعده بمبلغ من المال إذا عثر على الغلام أوليفر وجعل منه لصا أثيما .

ذاك طلب عجيب ، فاستأنفت نانسي الكلام وقالت :

وعاد أمس إلى الزعيم واختليا معا ، وتلصصت عليهما وسمعت فاجن العجوز يقول له : وهكذا تخلصت من الدليل الوحيد الذي يثبت هوية الغلام و رميته في أعماق النهر أما المرأة العجوز التي تسلمت ذلك الدليل من أمه فهي من سكان القبور وسمعت الرجل يجيبه : أجل وحبذا لو نقدر أن نجر الغلام في سجون لندن، حتى إذا ظهرت يوما صورة للوصية التي كتبها والده لم يستطع أن ينتفع بها فقالت وردة :

ما معنى هذا الكلام ؟! فقالت نانسي لست أدري يا سيدتي ، ولكني سمعته بعد ذلك يقول لليهودى العجوز : إن جميع الأشراك التي نصبتها في حياتك لا تعادل الشرك الذي سأنصبه في تصيد أخي الصغير أوليفر ، فصاحت وردة : أهو أخوه ؟! فقالت نانسي : هذا كلامه بحذافيره يا سيدتي ثم إنه عندما تحدث عنك وعن السيدة العجوز التي تعيشين معها وتدعينها خالتك ، قال إن السماء والجحيم يتآمران عليه ما داما قد ساقا الغلام إليك ، ولكنه عاد فضحك طويلا وقال : آه لو تدري وردة من ذلك الغلام الذي تؤويه ؟

ونهضت نانسي تريد الانصراف فوقفتها وردة وقالت : وماذا عساي أن أفعل بهذه الأشياء ؟ وكيف أستفيد منها ؟

ومتى أراك ثانية أو أين ألقاك ؟.

-و استشيري يا آنسة أحد النصحاء المخلصين أما أنا فسوف تجدين على جسر لندن في مساء كل يوم أحد من الساعة الحادية عشرة إلى منتصف الليل ، هذا إذا بقيت على قيد الحياة . !

وشاءت الآنسة وردة أن تنفح نانسي ببعض المال ، فأبت هذه كل الإباء ، فاقتربت وردة منها وشدت على يدها متأثرة شاكرة ، فاغرورقت عينا نانسي بالدموع ، فتلك هي المرة الأولى التي يصافحها فيها إنسان شريف مستقيم طاهر الذيل

هو ابن الحالة التي تعيش معها ولكنها ترددت في استدعائه إليها لأسباب عاطفية لا تريد إثارتها ، فما زال الفكر يطرحها كل مطرح حتى غلب عليها النعاس والتعب فنامت ونهضت في الصباح مهمومة ، وعادت إلى تفكيرها وقضت فيه ساعة أو ساعتين وإذا بالغلام أوليفر يدخل عليها مضطربا وكان قد عاد من نزهة في شوارع لندن صحبه فيها جيل ، فخفت إليه وردة وقالت » - : مابك يا أوليفر ؟ ماهذا الاضطراب ؟ فصاح وهو يلهث :عزيزتي ! لقد رأيته نعم رأيت ذلك الكريم الذي كان قد استضافتي عنده رأيت السيد براون وأين رأيته ؟ رأيته في أحد الأحياء وقد نزل من المركبة ودخل المنزل ، فغلبني الاضطراب فلم أستطع أن أهرع إليه ، غير أن جيل قد سأل عنه فعلم أن هذا مسكنه وإليك العنوان ودفع أوليفر ، إليها بورقة كتب فيها عنوان السيد براون ، فقرأتها وقالت- : سأصحبك يا أوليفر إلى هذا السيد الكريم ، ولكن أمهلني قليلا من الوقت حتى أرتدي ثياب الخروج ، وأخبر خالتي بأننا ذاهبان إليه .

وما هي إلا دقائق معدودات حتى كانت الآنسة وردة وأوليفر ، كان الليل قد انتصف عندما دخلت الآنسة وردة غرفتها ، والاضطراب يقيمها ويقعدها ، فقد سمعت من الفتاة نانسي أشياء أذهلتها وعصفت بقلبها ، فاستلقت إلى سريرها لعل النوم ينقذها من ثوران نفسها وقلقها البالغ ، ولكن هيهات استعرضت في خاطرها الأشخاص الذين تستطيع أن تبوح لهم بذلك السر الخطير ، فما قر قرارها على واحد منهم فبدأت أولا بطبيب الأسرة ، وكان في ضيافتها ، فقد دعته أن يصحبهم إلى أحد شواطئ البحر ، وكان السفر مقررا بعد يومين ، فلم ترتح إلى مباحثته بهذا الأمر لما تعرفه من طبعه الجاف ، فسوف يرى في كل هذا أضغاث أحلام ، وتذكرت فتى يدعى هنرى .

يستقلان المركبة في طريقهما إلى منزل السيد براون ، فلما بلغاه قالت الآنسة وردة ، للغلام :

ابق أنت في المركبة لأمهد لك سبيل اللقاء .

ونزلت الآنسة وردة من المركبة وسارت توا إلى المنزل ، وكانت بعد قليل وجها لوجه مع السيد براون ، فتطلعت فيه فإذا هو رجل وقور جميل القسمات ، قد خط الشيب رأسه فبادرته قائلة :

-جئت يا سيدى أحدثك عن غلام كنت قد غمرته فيما مضى بعطفك وحنانك عن غلام اسمه أوليفر تويست

فاهتز الرجل عند سماعه هذا الاسم وقرأت الآنسة وردة في عينيه الأسف والأسى ، فعلمت أنه يضمر له في قلبه ذكرى أليمة ، فقصت عليه قصة الغلام دون أن تذكر له شيئا عما باحت لها به الفتاة نانسى، فضاءت قسمات السيد براون فرحا وقال :

وأين هو الآن ؟ هلا جنتى به يا آنسة ! ، فقالت : إنه في المركبة على مقربة من الباب ينتظر الأمر بالدخول

وأسرع السيد براون ، ينزل درج السلم أربعا أربعا ، وعاد بعد قليل ممسكا بيد أوليفر ، والدنيا لا تسعه من شدة الفرح ، ثم نادى مديرة المنزل ، فجاءت دون أن تعلم أية مفاجأة تنتظرها ، فلم يكد بصرها يقع على أوليفر ، حتى هجمت عليه توسعه تقبيلا

وتركت الآنسة وردة المديرة العجوز وأوليفر يتناجيان ويتبادلان القبلات ، وطلبت إلى السيد براون أن تحدثه على انفراد ، فأطلعته على كل ما علمت من الفتاة نانسي فساورته من تلك الأنباء دهشة مشوبة بالقلق ، وتطلع أن يفاتح هو طبيب الأسرة وخالتها بالأمر ، ويتشاوروا جميعا في هذه المسألة الخطيرة .

ولم يضع السيد براون الوقت، فصحب الآنسة وردة إلى منزلها ومعهما أوليفر ، وهناك تبادل الرأي مع الطبيب فكان من رأى هذا إبلاغ رجال الأمن بالحادث بل بالحوادث ، ووضع الأمر في أيديهم ، غير أن السيد براون ، لم ير هذا الرأى وقال : لو شنق هؤلاء المجرمون كلهم لضاع الأثر الذي يجب أن نسعي إليه ، وهو معرفة أهل أوليفر والتمكن من استرجاع ميراثه ويخيل إلى أن مفتاح هذه الأسرار كلها هو المسمى مونك فلو شكوناه إلى السلطات ما فزنا بكبير طائل ، فليس في يدنا أي دليل على أنه من رجال هذه العصابة وهبه حكم عليه بالسجن بتهمة التشرد ، فسوف يغيب مره معه في غياهب السجون، فالرأي أن نحتال للقبض عليه حين يكون محاطا برجال العصابة ، وذلك دون إبلاغ رجال الشرطة وليس لنا إلا تلك الفتاة التي جاءت إلى الآنسة وردة وعلينا أن ننتظر إلى يوم الأحد .

وافق الطبيب والآنسة وردة وخالتها على هذا الرأي ، ولكن الطبيب اشترط أن يستشير في الأمر صديقا حميما له يتكل على حصانته وحسن رأيه ولم يكن ذلك الصديق إلا السيد هنرى ابن خالة الآنسة وردة ، فلم يمانع السيد براون ولا الآنسة وردة وإن اصطبغ وجهها بكثير من الاحمرار .

كان اليوم يوم الثلاثاء ، فانتظروا جميعا يوم الأحد بفارغ الصبر ، وعندما دقت الساعة الحادية عشرة تناولت نانسي ، قبعتها وهمت بالخروج وكان فاجن اليهودي العجوز في منزل سيك يتجاذب وإياه أطراف الحديث، فلفت نظره أن نانسي ، تهم بالخروج فقال سيك حانقا - : إلى أين في مثل هذه الساعة المتأخرة ؟ فقالت نانسي : لن أغيب طويلا فأثار الغضب ثائرة سيك فقال وهو يزمجر - : ما هذا الجواب ؟ قولى إلى أين أنت ذاهبة ؟ فقالت نانسى -لا أعرف إلى أين تصل بي قدماى قلت إنى لن أغيب طويلا فقال سيك لن تخرجي والويل لك إن خالفت أمرى فاستشاطت نانسي غضبا وصاحت بأعلى صوتها :

-دعني أخرج، فروحى تكاد تزهق في هذا المنزل إنى في حاجة إلى استنشاق الهواء ومشت إلى الباب تحاول الخروج، غير حافلة بنهى سيك فهجم عليها هجوم الوحش الضاري ، وجذبها عن الباب، ورمى بها إلى داخل الغرفة ، فوقعت إلى الأرض وهى تصرخ من الألم وسر اليهودي العجوز أن يرى سيك يستخدم سلطانه على الفتاة ولو بطريقة وحشية ، فقد كان منذ تصدت للدفاع عن الغلام أوليفر تخامره الظنون في إخلاصها للعصابة فقام وحيا سيك ، وشفع تحيته بنظرة أقره فيها على عمله وعدوانه ، وقفل راجعا إلى منزله غير أنه لم يسلك الطريق المؤدي إلى منزله ، بل عرج على حانة حقيرة مزدحمة بالمتسكعين واللصوص ، واختار منهم واحدا يسمى ولم وعهد إليه بمراقبة الفتاة نانسي وإبلاغه عن حركاتها وسكناتها خارج منزلها ، وعن الأشخاص الذين تقابلهم أو تحدثهم ، وأوصاه أن يجهد في سماع أحاديثها معهم

وقضى ، وليم ، ستة أيام مسمرا في مكانه على مقربة من منزل نانسي ، متنكر في زي حمال ، فذهبت مراقبته سدى ، فما خرجت الفتاة من المنزل ولا حتى أطلت برأسها من إحدى النوافذ وفي اليوم السابع وكان يوم أحد ، شاهد سيك يخرج قبيل العصر، ويسير في عكس الشارع الذي كان فيه ، وهو مطرق الرأس مشغول الذهن ، فلمع بصيص من الأمل في قلب الرقيب ، وتوقع أن يرى نانسى ، تغادر المنزل بعد قليل ، ولكن خاب ما توقع فقد مرت ساعات طويلة وباب المنزل مغلق على مصراعيه ، ولم يتخط عتبته أحد من البشر ، خى إذا أشرفت الساعة على الحادية عشرة ، انفتح الباب وخرجت منه نانسى ، وسارت في اتجاه مكمله ، فمشى في ذلك الاتجاه متمهلا وتركها تسبقه ببضعة أمتار ، ثم تبعها في حرص شديد خوف أن تفلت منه أو تغيب عن أنظاره .

ودامت المطاردة نحو خمس وأربعين دقيقة ، وصلت نانسى ، بعدها إلى جسر لندن ، فوقفت قليلا تجيل بصرها في أطراف الجسر ، باحثة مدققة ، كأنها على ميعاد مع بعض الأشخاص ، واستطاعت أن ترى في ذلك الظلام الدامس رجلا وامرأة واقفين عند منتصف الجسر ، ومستندين إلى درابزونه يحدقان في كل من يجتاز الجسر كأنهما هما أيضا على موعد مع أحد القادمين ولم تفت الجاسوس حركات الأشخاص الثلاثة ، فتبع نانسي ، مسرعا واقترب منها عندما رآها قد وصلت إلى المرأة والرجل وسمعها تقول لهما :

لا أستطيع أن أحدثكما هنا فتعاليا إلى تحت الجسر .

فسبقهم الجاسوس، ونزل درجات السلم المفضي إلى ما تحت الجسر، واختبأ وراء جدار من الجدران وأقبل الثلاثة الآخرون فوقفوا غير بعيد منه ثم قالت المرأة للفتاة نانسي -لقد انتظرناك عبثا يوم الأحد الماضى فلم تحضري - ولم أستطع الحضور ، فقد منعني من الخروج وضربني ضربا مبرحا فقال الرجل :

من هذا الذي يضرب النساء ويمنعهن من الخروج ؟ فقالت - : لقد حدثت عنه الآنسة وردة فهي تعرف أي سلطان له على فقال الرجل حسنا لنقتصد في الوقتمطلبنا يا آنسة أن تدلينا على هذا الذي يسمي مونك فيخيل إلينا أنه مفتاح سر القضية المتعلقة بالغلام .

وهبه أصر على الصمت فقال الرجل - : لا بد إذن أن تدلينا على زعيم العصابة اليهودي العجوز ارتجفت نانسي ثم قالت - : حذار يا سيدى إنه أحد أبالسة الجحيم على أنني أرجو أن تذكر الآنسة وعندما إيتاى بأن يبقى رجال الأمن والقضاء بعيدين ما تسعون فيه ، فأنا والرجل الذي أعيش معه سنكون أول من يشنق لكثرة ما اقترفنا من جرائر فقالت الآنسة وردة : لم أنس الوعد ولن أنقضه وأخذت نانسي تصف لهما الحانة التي تعود مونك ، أن يرتادها ،وتذكر لهما شكله وصفاته البدنية وعلاماته المميزة ، فكان الرجل يستمع لها وهو بادى الاضطراب ، وأتمت نانسي حديثها ، وكان كله أشبه بالهمس بحيث غاب بعضه على الجاسوس المتلصص المسترق للسمع وقالت

: وهناك علامة فارقة تساعد على معرفته في أعلى عنقه فقاطعها الرجل قائلا : لطخة حمراء من أثر احتراق فقالت نانسي مدهوشة : أجل أتعرفه يا سيدى ؟ فتنهد الرجل وقال - : إن الأوصاف التي ذكرتها عنه ، تجعلني أعتقد أني أعرفه ...

ولكن قد يتشابه الناس وسكت الرجل قليلا ثم قال - : لقد خدمتنا يا آنسة خدمة جليلة فبماذا نكافئك ؟

أشكرك يا سيدي إن راحة ضميرى هي المكافأة الكبرى .

فقال الرجل بلهجة كلها رقة وحنان :

إني ألمح صفاء نفسك يا آنسة فإن كنت أخطأت فيما مضى فلا تزال لديك فسحة المستقبل تكفرين فيها عن أخطائك ، وتعيشين حرة كريمة شريفة فتعالى معنا الآن ، وقبل انبلاج الفجر نبعثك إلى بلد قاصي تختارينه من بلاد العالم ، ونزودك بالمال والرعاية فقاطعته نانسي قائلة وهي تكاد تنتحب - : شكرا لك يا سيدي وألف شكر لقد خطوت في حياتي الأثيمة الخطوات الفساح ، فلا سبيل إلى التكوص وشاءت الآنسة وردة أن تقدم لها صرة من المال ، فاعتذرت نانسي عن قبولها وقالت : سامحيني يا سيدتي إن أنا اعتذرت عن قبول منحتك الكريمة ، فما قمت بما قمت به بغية اكتساب بعض المال، ولكن حسبي أن تهبيني قفازك أو منديلك ، أحتفظ به مدى الحياة أثرا كريما من نفس كريمة .

فخلعت الآنسة وردة قفازها ، وأعطتها إياه، ثم ودعتها وتأبطت ذراع الرجل الذي كان يصحبها ولم يكن إلا السيد براون وانصرفا وبقيت نانسي هنيهة وهي تجهش بالبكاء ، ولكنها رجعت إلى نفسها بعد قليل وصعدت درجات السلم إلى أعلى الجسر، ولقد انتظر الجاسوس حتى تبتعد، فبرح مكمنه وطار إلى منزل اليهودي العجوز والدهشة تملأ جوانحه .

وكان اليهودي العجوز قابعا في منزله لم يغمض له جفن، وهو يترقب مجيء الجاسوس ، لينفض له ما رأى وما سمع، وكانت هذه حاله طول الأيام السبعة الماضية ، ولشد ما اضطرب فرحا أو ترحا عندما وفد عليه جاسوسه في تلك الساعة المتأخرة من الليل، وبسط له خبر اجتماع نانسي تحت جسر لندن برجل وسيدة كانا في انتظارها ، وأطلعه على جميع ما سمع من أحاديثهم ، فشكره اليهودي العجوز ووهبه الجعل المتفق عليه ، وسمح له بالنوم في الغرفة المجاورة ، والبقاء فيها حتى الصباح .

وخلا اليهودي العجوز إلى نفسه يعمل الفكر فيما سببته له نانسي من مشاكل لن تقف عند ضياع مغنمه ، بل قد تتعداه إلى تعريضه لخطر السجن والمشنقة وتطلع عرضا إلى باب الغرفة فرآه قد انفتح ، ودخل منه سيك متجهم الوجه ، ثائر النفس ، فاستهل كلامه مع العجوز بصوت يقصف قصف الرعد وهو يقول :

-أين نانسي ؟ فقال اليهودي العجوز : أنا أحق منك بهذا السؤال أليست تعيش معك تحت سقف واحد ، فكيف فرطت في مراقبتها ؟ فقال سيك : حذار أيها العجوز الوقح من غضبي وانتقامى إنك تتآمر و نانسي على ، ولكنك تعرفي حق المعرفة وتعلم أن القتل أسهل ما ترتكبه يداى ، فالويل لك من انتقامى فقال اليهودي العجوز - : عد عن هذا الغضب ، واعلم أن نانسى تتآمر علينا جميعا، وسوف تجرنا إلى حبال المشانق فقال سيك وقد ازداد هياجه وغضبه - : أنت كذاب أشر أيها العجوز اللئيم - : أنت قادم الآن من منزلك ؟ ، فقال سيك - :كلا ولكني عرجت على المنزل بعد منتصف الليل بقليل ، فما وجدت نانسي فيه وقد حرمت عليها الخروج منه فقال اليهودي العجوز في هدوء مرعب قاتل - : سأبرهن لك على أني لست الكذاب الأشر، وسأجعلك تقتنع أن نانسي ستودى بنا جميعا إلى التهلكة وانفلت إلى الغرفة المجاورة ، وأيقظ جاسوسه ، ثم جاء به وهو يفرك عينيه من شدة النعاس ، وقال له بلهجة الآمر الناهى :

قل لصديقي سياك كل ما أخبرتنى به عن نانسي وعن أحاديثها مع من لقيتهما الليلة تحت جسر لندن ولا تخف منها حرفا واحدا فكرر الجاسوس الرواية التي كان رواها لليهودي العجوز ، فلم يكد يصل إلى نهايتها حتى استدار سيك على عقبيه ، وخرج مسرعا ، قاصد ا منزله ، فوجد نانسي تغط في النوم ، فأيقظها بجفاء وغلظة ، وشدد عليها الكير في السؤال والاستجواب ، فما ردت عليه بجواب تقتنع به نفسه ، فوثب إليها وثبة الذئب الغادر، وشد على عنقها بيديه الأثيمين حتى فاضت روحها وانقلبت جثة هامدة

غربت الشمس ذات مساء ، فوقفت مركبة من مركبات الأجرة عند دار السيد براون فنزل هذا منها، ونزل بعده رجلان بل عملاقان ، وهما قابضان على ذراعي رجل ثالث ، فأدخلاه عنوة إلى المنزل ولم يكن هذا الرجل الثالث إلا مونك .

دخل مونك المنزل مكرها ، وقاده السيد براون إلى مكتبه ثم قال يخاطب العملاقين الواقفين إلى جانبه :

اتركانا وحدنا ، وقفا عند الباب وكونا على مسمع من صوتى فنفذ الرجلان أمر براون ، فما كادا يخرجان حتى قال مونك - : يدهشني يا سيدي وأنت صديق قديم لوالدي ، أن تعاملني بمثل هذه الخشونة والقسوة ! فقال براون - :أما وقد ذكرت الصداقة القديمة التي كانت تربطنى بوالدك ، فاعلم أن تلك الصداقة وذلك الأمل البسام الذي كان يملأ جوانحي في أيام الشباب، ويقر بنى من شقيقته التي اختارها الله إلى جواره في اليوم الذي كانت ستزف فيه إلى ، كل هذا قد جعلني أخلص له الود حتى مماته مع ما ارتكب من أخطاء وكل هذا يحملنى اليوم على أن أرأف بك يا إدورد ليفورد وأتناسى أنك لطخت اسم والدك بالعار والشنار فقال مونك وسنبقي له هذا الاسم - ثم ماذا ؟ فقال : براون حزينا أسيفا : إن لك أخا فقاطعه مونك قائلا : أنت تعلم يا سيدي أن ليس لي أخ ، وأني وحيد أبوى أنا أعلم أنك وحيد أبويك من زواج تاعس ، وأنهما بعد عدة سنوات مملوءة بالشجار واليأس والحقد ، افترقا لأن مذهبهما لا يجيز لهما الطلاق ، فسعدت هي وكانت أصغر منه بعشر سنوات بحياتها الحرة ، وهو عاش حزينا جريح الفؤاد

-ما لي أنا وهذه الأنباء ؟ أيمنع ذلك أن أكون وحيد أبوى؟ على رسلك سأتم حديثى وإن كنت لا تجهل ما سأقول تعرف والدك إلى ضابط أرمل كان له ابنتان إحداهما جميلة كالصباح في التاسع عشر من ربيعها ، والثانية لم تكن سنها تتجاوز السادسة وبعد سنة واحدة من ذلك التعارف أحب والدك الابنة الكبرى وأحبته ووعدها بالزواج ثم سكت لحظة واستأنف حديثه وقال : وتوفي في هذه الأثناء بمدينة روما نسيب شيخ تاركا لوالدك كل ثروته ، فسافر إلى روما وأصيب هناك بمرض عضال، فلحقت به والدتك وكانت تقطن باريس وصحبتك معها إليه، فتوفي والدك غداة وصولكما إلى المدينة ، ولم يترك له وصية فعادت الثروة كلها إلى والدتك وإليك .

وهنا تنفس مونك الصعداء ، وظن أن حديث السيد براون سينتهي عند هذا الحد ، ولكنه فوجئ بمحدثه يتابع كلامه ويقول : وقبل أن يرحل والدك إلى روما جاء يزورني، وترك عندى صورة كان قد رسمها هو نفسه لشقيقته التي كنت سأتزوجها وكان الألم والندم قد هدا ركنه ، وأخبرني أنه ارتكب وزرا ثقيلا يلطخ بالعار سمعة أسرة كريمة ، وأنهى إلى أنه سيصفى ثروته وميراثه ويحولهما إلى مال سائل ويترك لك ولوالدتك جانبا منه ثم يهجر البلاد إلى مكان بعيد ، ثم وعدني بأن يكتب إلى ويطلعني على جميع أعماله ولكنه لم يفعل وكانت زيارته لي هي بيننا اللقاء الأخير .

واستراح السيد براون قليلا ثم قال : ونعاه الثعاة ، وانتشر خبر موته ، فقصدت بعد مدة وجيزة إلى مسرح حبه الأثيم فعلمت أن أسرة الضابط قد هجرت المدينة منذ أيام ثلاثة ، وليس من يعرف إلى أين اتجهت فتبستم مونك منتصرأ واستأنف السيد براون ، الحديث وقال

:

ولا ريب رمى القدر أخاك في طريقي غلاما هزيلا يرتدي الأسمال ، آويته و رعيته ، وأدهشني الشبه الذي رأيته بينه وبين الصورة التي تركها والدك عندي ثم اختطف من عندي وأنت تعلم كيف اختطف ولماذا اختطف ؟ فقال مونك في شيء من العناد والوقاحة المهم يا سيد براون أنك لا تمتلك دليلا واحدا أدان به وإني أتحداك أن تبرز ذلك الدليل فقال براون واثقا مطمئنا - : سوف نرى فاسمع الآن بقية الحديث كنت أعلم أن والدتك قد توفيت ، وأنك أنت وحدك من يستطيع أن يميط اللثام عن نسب الغلام فبحثت عنك ، فعرفت أنك رحلت إلى الهند الشرقية ثم عدت منها، ولكنني لم أستطع أن أعرف عنوانك في لندن فقد قيل لي إنك متنقل من مكان إلى مكان، فلا ترى إلا مع عشراء السوء كما كنت في حدائثك ومطالع شبابك فقال مونك متضايقا دع عنك كل هذا ، وهات الدليل على أني محتال مزور ،وعلى أن هذا الغلام أخي فقال براون لقد وقفت على الدليل منذ خمسة عشر يوما فقط أنت تعلم أن لك أخا ، وأنك تعرف هذا الأخ، ولست تجهل أن والدك قد ترك وصية بشأنه ، ولكن والدتك قد أخفت تلك الوصية ، وأخبرتك بذلك وهي تموت كان هناك غلام وهذا الغلام قد أثار شكوكك منذ اللحظة الأولى التي رأيته فيها ، ورأيت الشبه بينه وبين والدك ثم ذهبت إلى مكان مولده ، وحصلت على الدليل ، ورميت به في أعماق النهر أفتذكر هذه الوقائع أيها اللص المنافق المتوارى وراء الظلام ، المتآمر مع الأوباش واللصوص والأوغاد ، يا من كنت سببا في موت فتاة من عصابتكم تساويك ألف مرة أتتحداني بعد يا إدورد ليفورد؟ فامتقع وجه مونك وخارت قواه وقال -- : لست أنا الذي قتلها فصاح فيه براون

أتذكر الشبح الذي رأيته في يوم من الأيام وأنت تحدث شريكك في الإثم اليهودي العجوز ؟ لقد كان شبح الفتاة الكريمة التي تسمى نانسي فقد سمعت ما دار بينك وبينه من حديث ، وهي التي سمعتك مرة أخرى تقول لذلك المجرم العجوز إنك رميت الدليل على نسب الغلام في أعماق النهر لقد حركتها الشفقة بالغلام ورجعتها إلى طريق الفضيلة ، ولكن صديقها الوحش قد كتم أنفاسها ، فأنت المسؤول عن إزهاق روح هذه المسكينة ، فصاح مونك ، مضطربا : لا لا لست أدرى شيئا مما حدث ، ولا أعرف سبب قتلها فقال براون ، مهددة متوعدا - : والسبب هو أنها باحت ببعض أسرارك ، أمستعد أنت أن تبوح بجميع أسرارك ؟ فقال مونك متخاذلا :

-نعم فقال براون أتقبل أن تكتب اعترافك بخط يدك ، وأن تشهد عليه الشهود ؟ فقال مونك : نعم أقبل : فقال براون : اجلس إذن إلى هذا المكتب ، وابدأ بالكتابة ، وحينها تفرغ من اعترافك فسوف أسير بك إلى حيث تشهد عليك الشهود واذكر أن عليك واجبا أعظم وهو أن ترد إلى غلام بريء ميراثه الكامل وأعتقد أنك لم تنس نصوص الوصية ، فنفذها بحذافيرها ثم ارحل إلى حيث شئت من بلاد الله الواسعة .

وما كاد براون ينتهي من كلامه حتى اقتحم عليهما الباب الطبيب صديق أسرة وردة وهو يقول : لقد قبضوا على القاتل قاتل الفتاة نانسي أرشد رجال الأمن إليه كلب المجرم فكان الأثر الذي تعقبوه فقبضوا عليه فقال براون :واليهودي العجوز ؟ فقال الطبيب : يجد رجال الشرطة في البحث عنه وسوف يعتقلونه لا محالة وخرج براون ، والطبيب من الغرفة وأقفلا على مونك الباب وأخذا يتشاوران ويتبادلان الرأي ...

وبعد أيام ثلاثة ، استقل الطبيب وأوليفر والآنسة وردة وخالتها إحدى المركبات الخاصة في طريقهم إلى مسقط رأس وليفر، في حين استقل إليها السيد براون مركبة من المركبات العامة ، يصحبه رجل لم يصرح باسمهوكان أوليفر في حال من الدهشة والاضطراب لزم معهما الصمت الطويل ، وشاطره ذلك الصمت كل ركاب المركبة، وعندما وصلوا إلى المدينة التي ولد فيها أوليفر هاجت الذكريات في فؤاده ، فطفق يحدث الآنسة وردة ، ويدلها على ما يعرف من معالم المدينة : فهذا ملجأ البر الذي ولد فيه ، وهذه دار رعاية الطفل التي عاش فيها ، وهذا حانوت صانع التوابيت الذي عمل عنده وهذا وهذا ...

وكان المساء قد بدأ يلف الكون بردائه ، فوقفت المركبة عند أحسن فندق في المدينة فنزلوا منها واحتل كل منهم غرفته في الفندق وقبيل الساعة التاسعة ، وصل السيد براون في صحبة رجل غريب فما كاد أوليفر يراه حتى صاح صيحة الدهمش فقد تذكر أنه رآه مرة يدور حول المسكن الريفي الذي عاش فيه ناعما سعيدا في صحبة الآنسة وردة وأسرتها ، ويطيل النظر إليه ، ثم غادرت الأسرة الريف إلى لندن فلم تقع عينه عليه بعد ذلك ، فحدجه الرجل ببصره ، وصوب إليه نظرة مملوءة بالحقد والكراهية .

واجتمع القوم في إحدى غرف الفندق ، وتصدر السيد براون في المجلس ، وكان في يده بعض الأوراق فقال يخاطب الجمع الحاضر : إن على مهمة شاقة ياسادة ، ولكن يجب أن أقوم بها ، ففي هذه الأوراق التي بيدى اعتراف هذا الرجل في مسألة تهمنا جميعا ، غير أني حرصت على أن تسمعوا منه ذلك الاعتراف .

ثم وضع براون يده على رأس أوليفر وقال يخاطب ذلك الرجل الغريب وما هو إلا مونك : هذا الغلام هو أخوك هو الابن غير الشرعي لوالدك إدون ليفورد وللمسكينة أنييس فلمنج التي ماتت بعد ولادته بدقائق أليس كذلك ؟ فقال مونك وهو ينظر إلى أوليفر الذي كادت تسمع دقات قلبه : نعم فقال براون : وهذا الغلام مولود في هذه المدينة أليس كذلك ؟ فقال مونك : أجل في ملجأ البر والإحسان ثم قال يخاطب الجمع

الحاضر وهو يشير إلى الأوراق التي يحملها السيد براون - : إن في هذه الأوراق القصة بحذافيرها فحسبك ذلك، فقال براون : نريد أن نسمعك تقصها علينا فأذعن مونك ، وقال - : مرض والدي وهو في روما فلحقت به أمي وصحبتني إليه معها ، وكان الموت قد بدأ يدب في جسمه فلم يعرفنا ، وتوفي في اليوم التالى ، وكان بين أوراقه ورقتان وضعهما في ظرف وعنونه باسم السيد براون وأوصى أن لا يرسل إليه إلا بعد مماته ، فالورقة الأولى كانت رسالة إلى أنييس والثانية وصية فقال براون : وماذا كان في الرسالة ؟ فقال مونك : اعتراف منه بأنه خدعها ولكنه ذكر لها أن هناك بعض الموانع كانت تحول دون زواجهما العاجل ، ثم طلب منها في الرسالة أن لا تحقد عليه إذا مات ، وأن تغفر له جريمته ، ثم ذكرها في الرسالة باليوم الذي أهداها فيه حلية ذهبية على شكل قلب ، وخاتما نقش عليه اسمها الأول مؤملا أن تمكنه الأقدار من أن يضيف إليه اسم العائلة ، ورجاها أن تحتفظ بالخاتم والحلية وتضعهما دائما فوق قلبها فقال براون وقد رأى أوليفر ، يشهق ويبكى : وعلام احتوت الوصية ؟ ، فالتزم مونك ، السكوت

فناب براون عنه وقال : احتوت أولا على وصف الأشجان التي سببتها له زوجته الشرعية ، وعلى الميول الشريرة التي لمسها فيك أنت ولده الوحيد الذي ربي على الحقد على والده وكراهيته ، وتضمنت ثانيا ميراثا تركه لك ولوالدتك وقدره ثمانمائة جنيه في السنة، ثم قسم ثروته قسمين خص أحدهما بالفتاة أنييس فلمنج وخص الثاني بالولد الذي ستلده ، ونص على إعطاء المولود ذلك النصيب بلا شرط ولا قيد إن كان أنثي أما إن كان ذكرا فيعطى نصيبه عندما يبلغ سن الرشد ، على شريطة أن لا يكون قد لطخ اسمه بأية وصمة من وصات العار والجبن والخيانة، وإلا عاد الإرث كله إليك فقاطعه مونك قائلا : وقامت أمي بما تقوم به كل أم في مكانها، فقد أحرقت الوصية، ولم ترسل الرسالة إلى صاحبتها بل احتفظت بها وهجر والد أنييس المدينة هو وأسرته وتوفي بعد قليل ، أما ابنته الكبرى فهربت قبل ذلك ببضعة أسابيع وطافت المدن والقرى مشيا على الأقدام وسكت مونك واستأنف براون الحديث قائلا :

بعد عدة سنوات زارتنى والدة إدورد ليفورد أي والدة هذا الشرير الماثل أمامنا وأخبرتني أن ولدها هجرها وهو في الثامنة عشرة من عمره ، بعد أن سرق مالها وحليها وجواهرها ، وخسر كل ذلك في القمار ، فمال إلى النصب والاحتيال والتزوير ، ومعاشرة اللصوص والسراق ، وكانت مصابة بمرض خطير ومتحرقة شوقا إلى لقاء ابنها ، فعثرنا عليه بعد جهد جهيد، فرحلت معه إلى فرنسا فقال مونك متمما الحديث :

ماتت هناك بعد عذاب شديد وآلام مبرحة، وقبل أن تلفظ أنفاسها، باحت لي بسرها وورثتى حقدها الدفين على أنبيس وولدها ، وكانت مقتنعة بأن الفتاة لم تنتحر ، وبأنها ولدت غلاما وهو حي يرزق ، فأقسمت قائلا : لئن لقيته يوما لأعذبنه عذابا أليما، وألاحقنه بما استطعت من قوى وجهد حتى أجعل منه لصا سافلا حليف المنكرات والموبقات، ولو أدي الأمر إلى أن أدنيه من حبل المشنقة ، فأقضى على روح تلك الوصية الزرية وها أنا ذا قد لقيته في طريقي ، وبدأت عملى فيها نويت له بداية طينية ، وكدت أصل إلى أمنيتى وبنانسي لولا تلك الفتاة الثرثارة التي تسمى نانسي ثم أخذ مونك ، يقذف من فيه الشتائم واللعنات ، في حين اندفع براون يشرح للسامعين الخطة التي اتفق عليها مونك ، واليهودي العجوز والتفت براون ، بعد ذلك إلى مونك وسأله قائلا - : وكيف عثرت على الحلية والخاتم ؟ فقال مونك -اشتريتهما من الرجل والمرأة اللذين حدثتك عنهما وأنت تعرف أني رميت ذلك الأثر في أعماق النهر فخرج براون من الحجرة وعاد بعد قليل يدفع أمامه السيد بمبل وزوجته ، فلما صارا في وسط الحجرة قال لهما مشيرا إلى مونك

أتعرفان هذا الرجل ؟ فقالا معا : كلا فقال براون ألم يبتع منكما شيئا قط ؟ أولم يكن في حوزتكما خاتم وحلية ذهبية على شكل قلب فاشتراهما منكما ؟ فقالا معا : كلا وألف مرة كلا فخرج براون ثانية من الغرفة ، وعاد تصحبه امرأتان طاعنتان في السن ، تكادان لا تقويان على المشي ، فما إن يقع نظرهما على زوجة بمبل حتى رفعت إحداهما يدها المرتجفة ولوحتها في وجهها وقالت : لقد عنيت بإقفال الباب يوم ماتت العجوز سالى ولكنك لم تستطيعي أن تسدى فتحاته، فسمعنا كل الحديث وأردفت العجوز الثانية قائلة :

وفي اليوم التالى تبعناك إلى بنك الرهون فرأيناك قد تسلمت منه خاتما وحلية ذهبية نعم تبعناك ورأينا كل شيء ولا عن ذلك فإن المسكينة سالى كانت قد أخبرتنا قبل ذلك بزمن طويل ما أنهت إليها تلك الفتاة الصبية الجميلة أخبرتها أنها كانت تشعر باضمحلال قواها ، وبأنها لن تعيش طويلا ، فكانت تنوي السير ، حيث تموت على قبر من وهبها ذلك الغلام .

الخاتمة

فلم يسع بمبل وزوجته إلا الإقرار ، وهما مستنكران خيانة مونك فسمح لهما بالانصراف . وشكر براون للعجوزين الطاعنتين في السن شهادتهما الثمينة ، وأوصلهما إلى الباب مودعا ، ثم عاد وأمسك بيد الآنسة وردة وقال يخاطب مونك: أتعرف هذه الآنسة ؟ فقال مونك: نعم أعرفها إنها شقيقة أنييس : فبعد موت أبيها، وهرب أختها الكبرى، احتضنتها أسرة فقيرة من الفلاحين ، ثم لقيتها اتفاقا هذه السيدة الحاضرة بينا فأعجبت بها، وطلبت إلى تلك الأسرة الفقيرة أن تنزل لها عنها وهكذا كان فصاحت السيدة الوقور مقتربة من وردة : وهي عندى أعز من ابنة حقيقية ، بل أعز من نفسي ، ولن أفقدها فقالت وردة - : لقد كنت لى يا سيدتي أما برة رؤوما ، فلن أنسى فضلك ما حييت واقترب أوليفر من وردةوقال لها وهو يعانقها : أما أنا فلم تكونى لى خالة فقط ، بل كنت شقيقة عزيزة حبيبة وجرت خاتمة أشخاص هذه الرواية على ما يقضي به الحق والعدل والإنصاف ، فحكم على سيك وعلى اليهودي العجوز بالشنق ، قصاصا لهما على ما ارتكبا من آثام وجرائم ، وعفت المحكمة عن الجاسوس وليم مكافأة له على إرشاد الشرطة إلى مخبأ اليهودي العجوز، ثم انتظم في سلك الشرطة خادما أمينا للأمن والقانون

وقسا القدر على جميع من استخدمهم اليهودي العجوز في تنفيذ أغراضه، ممن غفلت عنهم عين العدالة فكانت عاقبة أمرهم أوخم العواقب أما الغلامان جاك وشرلو فقضيا فترة من الزمن في سجن الأحداث ثم خرجا منه وقد استقر في ذهنهما أن الحياة الحرة العاملة هي ما يرفع قدر الإنسان في أعين نفسه والناس فجدا واجتهدا وكبرا في ظلال الفضيلة والاستقامة والعمل الشريف .

واستنكرت إدارة الملجأ ما قام به بمبل وزوجته فطردا منه ، وقاسيا الهوان والذل وشظف العيش سنوات طويلة ثم انتهى بهما الأمر إلى سكن الملجأ لاجئين ذليلين بعد أن كانا فيه المديرين صاحبي الأمر والنهي والسلطان .

واضطر مونك ، أن يقدم إلى أوليفر نصيبه من ميراث أبيه ، غير أن أوليفر أبقى له نصفه ليمكنه من العيش الحر السليم ، ولا سيما أنه كان قد بدد نصيبه الخاص به ، فرحل إلى أمريكا محتفظا باسم مونك المستعار ، ولكنه عاد هناك إلى سيرته الشريرة ، فقضى نحبه في أحد السجون .

وزفت الآنسة وردة إلى الفتي هنرى ابن السيدة الوقور التي ربتها وكفلتها، فعاشا في ظلال تلك السيدة الكريمة عيشة هنيئة سعيدة واختارا السكن في لندن وكان طبيب الأسرة يزوره حينا بعد حين ، ويقضي معهم سهرات جميلة وكان سرورهم يبلغ منتهاه عندما ينضم إليهم السيد براون ومعه أوليفر الذي تبناه فيقضون جميعا ساعات ممتعة تخفي هناتها ما في فؤاد كل منهم من ذكريات أليمة.

ونشأ أوليفر نشأة صالحة ، وساعدته فضائله ومكارم أخلاقه وطيب عنصره ، على أن يكون مثال الشباب العاملين الناجحين ..